رحلة مصطفى محمود

لقاء مع الشيطان

إعداد

إيهاب كمال

دار الروضة
للدراسات الإنسانية



دار الروضة

حائز على شهادات تقدير
من المعارض الدولية والعالمية
• عضو اتحاد الناشرين المصريين والعرب •
• عضو الاتحاد الإسلامي العالمي للدعوة والاعلام •

رقم الإيداع
٢٠١٧ / ١٧٢٩٩

الترقيم الدولى :
978-977-458-167-4

الناشر
دار الروضة
للنشر والتوزيع
2 درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية تليفون : 25066884

المقدمة

عندما كنت طفلًا صغيرًا، كنت أتشوق لذلك الناي الحزين الذي يعلن بدأ برنامج "العلم والإيمان"، لأنني كنت أعلم أن الدكتور مصطفى محمود سيأخذني في رحلة جديدة معه لأكتشف العالم من راحة منزلي.

إلى أين يا ترى ستكون الرحلة هذه المرة؟ هل إلى غابات أفريقيا، حيث أتعلم عن القبائل البدائية، وطرق معيشتها؟ أم إلى الفضاء، وكواكبه المتناثرة؟ ربما حديث عن المريخ، أو الصعود على القمر؟ ولربما كان بعيدًا عن هذا كله، فكان حديثًا حول مسألة الموت، وماذا بعده؟ حقًا لا أبالي، فالشيء الوحيد الذي كنت متأكدًا منه، أنه شيء سيذهلني، وسيشعل عقلي فضولًا.

كبرت، وودعت رعونة المراهقة. ولكنني أيضًا استقبلت أسئلة ثقيلة: لماذا أنا هنا؟ لماذا نحن هنا؟ كيف وجدت؟، أبي وأمي والمدرسة والمسجد يقولون لي أن الله أوجدني، لأعبده. ولكن المشكلة في هذه الأسئلة أنه لا يصح فيها تلقين الإجابة. لا بد على كل أمرؤ أن يجد جوابها بنفسه.

كنت أفتش يومًا في مكتبة أبي القديمة، فوجدت كتابًا يدعى "أينشتاين والنسبية"، كان اسم المؤلف مألوفًا، ولكنني تفاجأت أن مقدم برنامج العلم والإيمان يكتب كتبًا أيضًا! فبدأت أقرأ، وأقرأ، مستمتعًا بنفس الأسلوب السلس المسلي الذي اعتدته في برنامج العلم والإيمان، ولحسن حظي، لم يكن كتاب "أينشتاين والنسبية" الكتاب الوحيد في مكتبة أبي للدكتور مصطفى محمود، فانهلت على كل ما وصلت إليه يداي قراءةً وتدبرًا، ولم أجد إرهاقًا أو أي شيء من هذا القبيل، لأن كتب الدكتور تسلي أكثر من قراءة الروايات! ولقد كانت تلك الكتب آخر ما أقرأ قبل نومي، ولربما كان هذا خطأ فادحًا، لأنك لن تستقبل النوم بعد أن يشعل الدكتور رأسك أسئلةً.

اليوم أنا في بداية عقدي الثالث، ومجموع حصيلتي من كتبه، قرابة العشرين كتابًا، ولكن ذلك مازال بعيدًا عن شمول مؤلفاته كلها، فمؤلفاته تجاوزت الثمانين كتابًا. ومع ذلك أستطيع أن أجزم اليوم، أن العشرين كتابًا التي قرأتها، كونتني. فأزال من صدري كل الشكوك كتاب "حوار مع صديقي الملحد"، وأنار دربي في رحلة البحث عن الحقيقية، رحلة الدكتور الشخصية "رحلتي من الشك إلى الإيمان".

وفتح على فكري مدارك واسعة كتابه "علم نفس قرآني جديد"، حيث قدم نظرية علم نفس جديدة مبنية على الوحي القرآني، والتي هي بالنسبة لي نظرية أشمل وأدق من علم النفس الحالي، ولا أنسى كتاب "لغز الحياة"، والذي أمسك فيه الدكتور بيدي في جولة في نظريات الحياة والتطور والطبيعة. وغيرها كتب أخرى، لا يسعني ذكرها هنا.

لم يترك الدكتور مجالًا إلا كتب فيه، فله مؤلفات في الفلسفة، والعلوم، والدين، والسياسة، والمسرح والقصة والرواية! ومع اتساع دائرة مؤلفاته، وعمق مواضيعها، أستطاع الدكتور أن يقدمها كلها بأسلوب سهل شيق يناسب الجميع.

كم مرة أذكر أنني تلفظت بالشهادة عندما أنهيت أحد كتبه، لأنني وقتها شعرت أنني أسلمت الآن! فقبل كل هذا لم أكن سوى وارث للإسلام. والاقتناع بالإسلام شيء آخر تمامًا.

الاقتناع بالإسلام يعني رحلة من التفكير والبحث بأسلوب منطقي بعيد عن كل الأهواء والافتراضات. وهذا دون يد تساعدك أو ترشدك أمر شبه مستحيل. والحمد لله أن الدكتور دون رحلته وشكوكه وأسئلته، فبذلك اختصر على الناس الكثير. وكان يدًا ترشدك إذا ما ضللت الطريق.

"أنا حقابل ربنا بشوية كلام؟!". هكذا قال عندما كان يتحدث في أحد اللقاءات التلفزيونية، فلقد وصف قرابة التسعين كتابًا بـ "شوية كلام"! ولهذا لم يتوقف إنتاج الدكتور على هذه الأمور، فقام بإنشاء مسجد في القاهرة، وأسماه باسم أبيه: "محمود".

وألحق بالمسجد ثلاث مراكز طبية، وأربع مراصد فلكية، ومتحفًا للجيولوجيا!

قبل سبع سنوات، ذهبت روحه الطيبة إلى لقاء ربها. ولكنها لم ترضى أن تترك هذه الدنيا قبل أن تترك شيئًا عظيمًا من نورها. الدكتور مصطفى محمود أدرك أهمية الإعلام في نشر الوعي الذي يؤدي بدوره إلى نهضة الشعوب، فقام باستخدام كل الوسائل التي وصل إليها، لنشر رسالته.

أتأمل كثيرًا في الفضل الكبير للدكتور عليَ مع أنني لم ألقه يومًا، وأتخيل عدد الأشخاص غيري الذين تأثروا به. إنه لأمر جميل حقًا أن تترك هذه الدنيا دون أن تغادرها! بأن تضع بصمة تساهم، ولو قليلًا، في تغيير هذا العالم.

وفي هذه السلسلة سنحاول استلهام أفكار وكلمات هذا الكاتب والمفكر الكبير ونحاول أيضاً أن نستخرج أفكار ورؤى رائعة من بين سطوره ولقاءاته في برنامجه الرائع العلم والإيمان.

***

لقاء مع الشيطان

كان الطريق إلى الشيطان ينزل عدة درجات عبر ممرات حلزونية مظلمة، إلى ساحة مبطنة بالجمر الملتهب.. والأرض كلها مفروشة بالجمر، ويخرج من الجدران والأرض وهج أحمر مخيف.

وفى وسط الساحة وعلى عرش من نار يجلس إبليس وهو نفسه قبضة من جهنم.. كل شيء فيه.. عيناه.. جبهته.. يداه.. جلده.. أنامله.. كلها تشع ناراً.

وقام الشيطان حينما رأى الدجال وأسرع إليه وعانقه بشدة حتى صرخ:

- أعوذ بالله.. هذا حريق وليس عناقاً..

فقال الشيطان:

- هذا هو الكى الشافى الذى تستخدمونه عندكم لعلاج الكبد والطحال والروماتزم.

- متشكر.. لست أشكو من الكبد ولا من الطحال ولا من الروماتزم.. والجمر عندكم يكوى المفاصل بما فيه الكفاية.. يا حفيظ هذا المكان لا يطاق.

- صدقنى هو أفضل بكثير من الزنزانة المخصصة لك مع زميلك باناماريوف، فقد اختار لك الله موقعاً فى الجحيم أسفل من مكانى..

- أنا أسفل منك؟

- بكثير.. صدقنى.. أنا وجنودى وجيشى هواة مبتدئون بالنسبة لسيادتك.. نحن شياطين ديكور.. شياطين ورق، بالنسبة لمكرك العظيم وعلمك العظيم فى فنون الشر.

- أنت.. أنت إبليس الزعيم تقول هذا الكلام.

- وأكثر..

- أنت الذى خدعتنى ومكرت بى وأوردتنى هلاكى.

- يا شيخ.. هل تريد أن تفهمنى أنك صدقت أنى أنا الله رب العالمين.

- طبعا صدقت ولهذا أطعتك.

- وهل هناك رب يطلب من عبده أن يترك الصلاة والصوم والعبادة، وأن يزنى وان يأكل مال الغير، وأن يدعو إلى الفجور والفسق علناً.. إزاى..

- لقد قلت لى إن هذه هى الشريعة الجديدة فصدقتك.

- فى شرع أى عقل وكيف يجوز مثل هذا الكلام على إنسان؛ بل على حيوان.

- لقد قلت لى أنا الله.

- لقد كنت تعلم أنى أهزل.. وقد فهمت بفطرتك كل شيء من أول لحظة، ولكن الحكاية استهوتك وجاءت على مزاجك وأعجبتك اللعبة فسايرتنى حتى آخر الشوط.

- والعصا السحرية التى ضحكت بها على.

- إن عصا أصغر منا من عصيكم مركب فيها مخ إلكترونى تستطيع أن ترسل صواريخ تعبر الفضاء وتتحكم فيها وتوجهها.. وأنت بعلمكم تنقلون قلوب الموتى إلى الأحياء.. فما هى تلك العصا التافهة بالنسبة لمنجزات العلم البشرى.. إنما هى لعبة.. وقد فهمت بمكرك أنها لعبة.. وأردت أن تضحك بها على الناس.. صدقنى إنى أشعر بالخجل من تخلفنا الشيطانى فى فنون المكر.. لقد سبقتمونا كثيراً.. وأنت سبقتنى بدرجة هزت ثقتى بنفسى، وهزت مركزة أمام القيادات الشيطانية، لدرجة كادت تدفعنى إلى الاستقالة.

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم وأكثر فنحن فى عصرك وبفضلك أصبحنا جيشاً من الشياطين العاطلين.. أشبه بجيش التشريفة الذى يمشى خلف الجنازات بلا عمل.. فماذا تجدى فنوننا التقليدية مع أساليبك الجهنمي، إن أقصى ما كنت أستطيعه فى مسألة الإغراء الجنسى أن أرسل جنودى يوسوسون للناس بالخواطر الشهوانية.. أما أنت فماذا فعلت.. لقد أنشأت محطة خاصة للأقمار الصناعية تذيع لجميع أجهزة التليفزيون.ز الأوضاع الثمانية عشر للعملية الجنسية.. وقلت فى مقدمة هذه السلسلة.. إنك تقدمها خدمة للعلم وكدراسة أكاديمية ليستفيد منها الأزواج فى تحصيل اللذة بأفضل وسائلها.. وطبعا أنت تعلم أنه لم يتابع هذه السلسلة إلا المراهقون.. أما الأزواج فكانوا يغلقون أجهزة التليفزيون بسبب الملل الذى يعيشون فيه.ز وهكذا فسد الجيل كله وأصبحوا مثل قرود الجبلاية.. كل شاب مشغول بعضوه التناسلى..

- ولم تستطع الرقابة أن تتحكم فى الأمواج التليفزيونية فى الهواء. ولم تستطع أنت تمنع هذا الفيض من الفحش الذى كان ينتشر عبر الفضاء بلا موانع.. أين نحن من هذه الأساليب.ز لقد انتهينا يا مولانا.. لقد جاءنى شيطان صغير منذ شهور كان يعمل فى قسم التهريب، فقص على قصته ثم انتحر.. فماذا تظن كانت قصته..

- ماذا كانت؟

- كان مكلفاً بمرافقة أحد المهربين المحترفين.. وكان صاحبنا هذا يفكر فى تهرب مليون جنية سرقها من أحد البنوك، واقترح عليه الشيطان أن يدفنها فى الأرض مدة حتى تنسى الحادثة، ثم عاد فاقترح عليه أن يهربها فى صناديق الفاكهة. ثم عاد فاقترح عليه أن يضعها فى أنبوبة العادم فى سيارته الشيفورليه.. أو فى كيس بلاستيك فى خزان البنزين.. ولكن صاحبنا ابتسم لهذه الاقتراحات الساذجة وأشاح بيده فى عدم مبالاة.. ثم ماذا فعل.. اشترى بالمليون جنية طابع بريد تذكارياً نادراً.. ثم وضعه على خطاب عادى وأرسله تحت أعين جميع الشرطة والمخابرات.. وانتحر الشيطان غماً.

- أما الحادثة الثانية، فكانت لشيطان آخر يعمل فى قسم تهريب المخدرات، وكانت المشكلة فى تهريب عدة أطنان من مادة L.D.S ومعلوم أن مللى جرام واحد من هذه المادة يكفى لتخدير أسرة، وفكر الشيطان الذكى وفتح ذهنه، ثم اقترح تهريبه فى زجاجات الملح، ثم عاد فاقترح تهريبه مذاباً فى برطمانات المربى.. ثم عاد فاقترح تهريبه فى زجاجات المياه المعدنية.. واستمع المجرم المحترف إلى كل هذه الخواطر الشيطانية، ثم أزاحها جانباً وفكر فى وسيلة جهنمية.. أن يضع المادة المخدرة فى الصمغ اللاصق فى خطابات المعايدة والتهنئة.. وما على المدمن إلا أن يلحس الصمغ اللاصق بلسانه فيحصل على الرجعة المخدرة.. يومها جاءنى ذلك الشيطان وظل يلطم وجهه حتى فقأ عينه.

وهل يخطر لشيطان مهما بلغ من القسوة أن يعذب بريئاً فى سجنه، فيكوى جلده وينزع أظافره وينفخ بطنه ويعلقه من قدميه، ويضع الخوازيق فى الأماكن الحساسة من جسده، ويطلق عليه الكلاب ويهدده بالملابس الداخلية لبنته وزوجته ليجبره على الاعتراف.. كما فعلت عصابة صاحبكم الذى بنى السد العالى..

.. يا مولانا أنتم لم تتركوا لنا فناً إلا سبقتمونا فيه.. وكان رب العزة والجلال على حق حينما طلب منا السجود لآدم.. فهنا كان جنس من المخلوقات إذا أراد الشر تفوق شره على الجميع. وإذا أراد الخير تفوق خيره على الجميع.. لقد كان يجمع القدرات كلها فى يديه بحكم النفخة الربانية.. ولكننا لم نفهم الحقيقة حينذاك وغلبنا كبرياؤنا وغلبتنا شقوتنا وحقت علينا اللعنة..

ولكن اليوم لابد من وقفة صراحة..

ولا يمكن الاستمرار فى الكذب إلى الأبد..

لقد قررت الاستقالة من زعامة الإفساد وتسليمك خاتم الملك ووضع جنودى فى خدمتك.. وهذا عرش النار تقد واجلس عليه واحكم دولة الظلمات..

أما أنا، فها أنا أسجد لك بعد فوات الأوان.

وسجد الشيطان لآدم الشر والفتنة "المسيخ الدجال" بعد مليون سنة من الإباء والكبرياء، ووقف الدجال مأخوذاً لحظة مختالاً بهذا التسليم الفجائى، ثم عاد يربت على رأس إبليس مغمغماً:

- قم يا صديقى المسكين اجلس على عرشك.. لم يعد فينا منتصر ولا مهزوم ولا حاكم ولا محكوم، بل نحن جميعاً الآن فى القبضة الإلهية.. ولقد خبنا جميعاً وخاب سعينا.. وإذا كان لى رجاء فهو رجاء واحد.

- اطلب وأنا فى خدمتك.

- أن تخلصنى من هذا التيس الروسى باناماريوف.. أرجوك.. أقبل يديك وقدميك.. خذه يعمل عندك فى قسم الإلحاد.. إنه داعية مفيد جداً.. خذه فى فرع المادية الجدلية إنه متخصص لا يشق له غبار.. خذه فى ستين داهية إنه رجل لا يطاق.. إنه إنسان إلى بدون مخ.. كلامه يرفع ضغط دمى.. نبره صوته الخشبية بتعمل لى تصلب شرايين.. أنا فى عرضك.

فقال إبليس وقد أسقط فى يده:

- هذا أمر ليس فى يدى.. ألم تسمع الصوت الذى ارتجت له السموات.. "لمن الملك اليوم" وكيف أجاب الملائكة فى صوت واحد.. "لله الواحد القهار" يا سيدى لم يعد لنا حكم اليوم ولا تصرف.ز وصحبة هذا الباناماريوف صدرت عليك منذ الأزل.. ولا رحمة ولا استئناف.

- ولكن صحبه هذا الإنسان الحجرى عذاب لا يطاق.

- وله يراد لك الآن إلا العذاب.. وهل ينتظرك إلا البؤس الأزلى.. وأنت الذى غلبت الأبالسة..

- صدقت.. لا مفر.. الأمر لله..

ولكنه عاد فقال فى أمل:

- ولكن ألا يمكن أن ألتقى بعبد الحليم حافظ أو أم كلثوم لأروح عن نفسى قليلاً فى هذا الغلب.

فقال مالك: إن عبد الحليم رجل غلبان والله عفا عنه بما أصابه من بلاء المرض فى حياته، وأم كلثوم دخلت فى حساب الذين خلطوا عملاً سيئاً وآخر صالحاً عسى الله أن يتوب عليهم..

ولكن عندنا مارلين مونرو إذا كان مزاجك اليوم فى أهل الفن والطرب، ولكنها فى الدرك الثالث من جهنم فوقك بأربع درجات، ولا يمكن أن تصعد إليها ولا أن تنزل هى إليك وأنت أسفل السافلين.

- ألا يوجد فى أسفل السافلين أحد من الفنانين أو المطربين أو الملحنين.

- هناك بعض كتاب المادية الجدلية والفلاسفة الدجالين والمؤلفين الذين احترفوا إفساد الناس عن عمد وعن قصد.. وهناك العملاء الذين روجوا الباطل للكسب والاتجار.. وهناك الطغاة والجبارون.. وهناك السفاحون الذين عذبوا الأبرياء فى السجون مثل الرويى وحمزة البسيونى، أما الفنانون بمعنى أهل الفن الجميل فهؤلاء مرحومون بحكم اجتهادهم، فى إبداع كل جميل والكفرة والفساق ومنهم نجدهم فى الدرجات الأولى والثانية والثالثة من جهنم، ولذلك تخفيف من رب العزة على كل من أبدع جميلاً فى الحياة.. ومن أهل أسفل سافلين أيضاً اليهود الذين حرفوا التوراة والإنجيل وأخفوا الآيات واستبدلوها. وزوروا وابتدعوا وافتروا على الله الكذب. ومنهم قتلة الأنبياء.. ومنهم السحرة الذين أغووا الناس بحسرهم وعبدوا الجن والشياطين.. ومنهم السامرى الذي صنع العجل الذهب وأضل به قوم إسرائيل.. ومنهم النمرود الذى ألقى بإبراهيم فى

النار.. ومنهم الجبارون الذين أحرقوا النصرى فى الأخدود.. وفيهم هولاكو وهتلر وستالين وكل عمالقة التخريب فى العالم، وفيهم منجستو الذى قتل ألف طالب فى يوم واحد..

- أعوذ بالله.. دى جيرة مهببة.

- صفوة الشر والبغى فى التاريخ.

- الله يطمنك.

- شد حيلك.

- يبدو أننا لن نعرف السلام هنا أبداً.

- لا سلام هنا ولا راحة، وإنما حرب أبدية وقتال أزلى بلا غاية وبلا هدف، ودون أن ينتصر فريق على فريق.. وإنما الكل يعذبون بعضهم بعضاً بحكم طبائعهم.

- يا حفيظ.

- إنما السلام فى دار السلام..حيث النفوس من نوع آخر.. نفوس مشغولة بالحب وبإعطاء الحب.. وبتبادل الحب.

- ألا يمكننى أن أتسلل إلى واحة الحب هذه فى غفلة من الحراس.

- لن تستطيع أن تعيش هناك لحظة واحدة، فأنت نفس مختلفة من نوع مختلف.. إن لذتك فى الدجل والمكر والشر والاختلاس والسرقة والاحتيال والإيذاء.. ولو خرجت من الجحيم سوف تصبح مثل سمكة خرجت من الماء.. إن مكانك هنا.. وقدرك أن تقارع الأشرار مثلك ويقارعوك وتقاتلهم ويقاتلوك، وتحسدهم ويحسدوك وتخونهم ويخونوك وتحقد عليهم ويحقدوا عليك وتغدر بهم ويغدروا بك.. ولا نهاية لهذه الدائرة المفرغة من الشر فهذه حقائقكم ولا تستطيع نفس أن تعطى غير حقيقتها ولا يمكن لإناء أن ينضح إلا بما فيه.

- ألا يمكن أن يعطينا ربنا فرصة أخرى لنتوب ونعمل صالحاً.

- لو ردك ربنا إلى الدنيا لعاودت نفس سيرتك، فهذه حقيقتك وهذا سرك.

فصرخ الدجال:

- وما ذنبى أنا إذا كان الله خلق لى سرى هكذا.

فعاد مالك يشرح له:

- حانرجع تانى للكلام الفارغ.. لقد قلت لك يا رجل إن الله لم يخلق لك سرك ولم يخلق لأحد سره، وإنما خلق لك الله اليد والقدم والقلب والعقل، لتعبر عن خيرك وشرك وتكشف مكنونك وسرك الذى تخفيه.

- وما هو سرى الذى أخفيه؟

- ذلك هو سرك الخاص بك لم يخلقه فيك أحد ولم يقهرك عليه أحد، وإنما هو طويتك ومكنونك وحقيقتك منذ الأزل؛ وقبل أن تولد فأنت من سكان هذا المكان منذ الأزل.. حينما كان هذا المكان عدما وكنت عدما ولكن فى باطن العدم لا تخفى على الله الخفايا ولا تستتر عنه النوايا.

اختصار القول إنه لا فائدة ولا مهرب ولا مفر.

- إذا كان لك مهرب من نفسك، فإن لك مهرباً من هنا.

- حسنا.. سلمت.. واستسلمت.

- ذلك عين الصواب.

- ولكن لا بأس فى البلوى من سلوى.

- ماذا تعنى؟

- أقول ما رأيك أن بحث عن شلة الحرافيش لابد أنهم شركاء فى هذه المصيبة التى نحن فيها.

- من هم شلة الحرافيش.. تقصد شلة نجيب محفوظ.

- هو بعينه ما قصدت غيره.

- لقد ظلمت الرجل يا شيخ.. ولا أظن أنه سيكون من جيرانك.. فهو رجل طيب وإن كانت مآخذنا عليه كثيرة..

- وما هى تلك المآخذ؟

- والله يا أخى صاحبكم عجيب الأحوال تراه فى حياته يصلى ويصوم ويلتزم بالآداب والوصايا، ثم تقرأ كتبه فلا تجد أثراً لوجود الله، وإنما تطالع عالماً مادياً يأكل بعضه بعضاً.. وتغرق فى ظلمة من الشرور والمظالم.. ليس فيها بصيص نور.. فى روايته "الطريق" ترى الله عبارة عن أب وهمى لا وجود له، وفى روايته "أولاد حارتنا" يموت الله فى آخر الرواية ويجلس العلم والعقل فى مكانه، وفى قصة "الغرزة" يكتشف الحشاشون فى الصباح أن الشبح الذى تصوروا أنه كان يتربص بهم على الباب كان عباءة معلقة أو جوال قطن لست أدرى، ثم هو يأخذ القارئ إلى دوامة من الانفعال الرافض بدرجة تدفع به إلى الغضب المبهم، وإلى الرغبة فى تهديم كل شيء .. ثم هو لا يفصح عن موقفه ولا يقترح حلاً ولا يعلمن أيديولوجية معينة، وإنما هو يبدو دائماً ذل الرجل الذى يصعد على أعلى نقطة فى برج القاهرة، ثم يطلق الرصاص على الناس من مدفعه الرشاش بطريقة عفوية موجهاً الموت إلى الكل.. ووجه العجب فى صاحبكم وما يدعوننى دائماً إلى التساؤل كلما قرأته.. إنه إذا كان يصلى ويصوم وإذا كان اقتنع بالدين منهجاً وحلاً، فلماذا لا يبدو هذا الحل فى رواياته.. ولماذا يبدو الدراويش فى رواياته هلافيت.. وتبدو المومسات بطلات واللصوص ضحايا.

هذا رجل عجيب صاحبكم نجيب محفوظ هذا.

- وماذا تظن آخرته؟

- العبرة بالخواتيم.. ولا نرى بماذا ختم له.. ولعله تاب وأناب وأقلع عن هذه السكة البطالة التى كان يسير فيها ولعله فى آخر مؤلفاته قد قال شيئاً آخر.

- يبقى شيء عجيب.

- ما عجيب إلا الشيطان.

وسكت الدجال فترة، وغرق فى التفكير ثم أشار إلى إبليس من طرف خفى.

ومال الاثنان بعضهما على بعض يتهامسان.

قال الدجال:

- اسمع يا أخى يا إبليس الظاهر أن الحكاية جد وأن مفيش فايدة.. وأننا ضعنا..

- ضعنا الضيعة التى لا بعدها ولا قبلها.

- اسمعنى لم يبق إلا حل واحد.

- ما هو؟

قال الدجال فى صوت خافت مبحوح: الثورة.

همس إبليس فى دهشة وقد فغر فاه: أى ثورة.

فقال الدجال فى صوت جاف أجش: ثورة اشتراكية.

وهنا انفجر إبليس ضاحكاً.. ثم تكور وانتفخ من كثرة الضحك حتى تحول إلى بلونة هائلة، ثم راح ينفجر ويقرقع بالضحك. حتى سمعت ضحكاته الشيطانية فى

السماوات السبع والأرضيين السبع والكون السفلى والعلوى.. وما بقى مكان فى الفلك إلا وسمع فيه ضحكته الشيطانية.

قال الدجال مذهولاً: وما الذى يضحك إلى هذه الدرجة يا إبليس؟

قال إبليس وهو مازال يحاول أن يكتم ضحكه: ثورة اش.. اش.. اش.. اشتراكية الله يضحك يا شيخ.. ماذا تقول فيها.. نريد الخبز.. نريد الحور العين..

قال الدجال: بل نقول تسقط الطبقية والاستغلال.

قال إبليس: استغلال من.. إن أهل الجنة لا يستغلونك، وأنت لا تعمل عملاً لتدعى أنهم يأكلون أجرك، ثم يبنون قصورهم من فائض القيمة.. استغلال من.. أنا لا أفهم.

فقال الدجال غاضباً: إن الله قد أخذ أرضى.. أخذ ألف فدان من أجود الأرض فى الفيوم.

فقال إبليس وهو يضحك: أرضك.. ألك أرض.. إنها كلها أرضه.. السماوات والأرضيين ملكه.. والبحار والأنهار والأشجار والرياض والجبال والوديان ملكه، والشمس ملكه والقمر ملكه والمخلوقات كلها ملكه.

قال الدجال: وهدم لى عمارة من عشرين دوراً فى باب اللوق، كانت تدر على دخل عشرين ألف جنية فى الشهر.. هدمها بزلزال.

قال إبليس: إنه حر فى ملكه يهدم فيه ويبنى ويزلزل ويميت ويحيى كما يشاء.. أله شريك فى ملكه يقيم عليه دعوى إتلاف.

قال الدجال: أنا عندى حجة مسجلة فى الشهر العقارى بالأرض والعمارة.

وهنا انفجر إبليس فى ضحكة شيطانية أكثر جلجلة من الأولى وراح يتشقلب مثل البهلوان.

ولم يتمالك كبير ملائكة جهنم "مالك" خازن النار نفسه، فضرب الدجال ضربة على بوزه أطاحت بجميع أسنانه دفعه واحدة.

وانكمش الدجال من الألم حتى أصبح أصغر من الجرذ..

ثم عادت أسنانه فنبتت كلها من جديد.

وقال إبليس: إن حكاية الثورة الاشتراكية سوف تكلفك كثيراً.. فإن جهاز المخابرات هنا دقيق ولا يمكنك أن تتهامس بمؤامرة، أو تهرب منشوراً أو تضحك على الناس بأضاليل كالتى كنا نضحك بها عليكم فى الدنيا.. فإن الجدران تسمع والشجر يتكلم، ويدك تعترف عليك وقدمك تعترف عليك وقلبك يعترف عليك.. إن الشيوعية كانت لعبة الأبالسة فى الدنيا كلما أرادوا أن يؤلبوا الناس بعضهم على بعض، وكلما أرادوا أن يشعلوا الأحقاد ويشتتوا الشمل.. كانت الاشتراكية هى الكلمة التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.. ظاهرها العمار وحقيقتها الخراب.. وكانت هى العالم الملتوى من الكلمات الذى يضل فيه الحكيم ويتوه فيه اللبيب.. وذلك كان بعض مكر ذلك الماكر الكبير كارل ماركس الذى أوقع العالم كله فى خيوطه العنكبوتية.

قال الدجال: وهل وقع العالم كله فى الشيوعية؟

قال مالك: نعم فى ختام الزمان عاد العالم كافراً كما بدأ كافراً.. واكتسحت الشيوعية العالم، ووقف المؤذن ليقول على المئذنة: لا إله.. ثم يسكت.. ولا رسول ثم يسكت.. ورفع الله الرحمة من الصدور ورفع القرآن من القلوب.. وازدهر العلم.. وخيل للإنسان أنه قد سيطر على كل شيء، وبلغت الأرض غاية زخرفها وظن أهلها أنهم قادرون عليها، وراح الإنسان يستمتع فى حرية وبلا وازع من حرام ويستحل كل شيء .. حينذاك أتى أمر الله بغتة فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس.. الأرض تخسف والجبال تنسف والبحار تتفجر.. والقبور تتبعثر.ز ويسجد الناس ويبكون ويدعون بلا جدوى.. وتقتل الشعوب زعماءها الذين أضلوها.. ثم يقتلون بعضهم بعضاً، ويحرقون جثمان لينين المحنط فى الكرملين..

ويلعن الواحد منهم نفسه.. وكنت ترى الناس سكارى وما هو بسكارى حينذاك أتت نفخة الصور.. فصعق من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله من أحبابه المقربين.

قال الدجال وهو يرتجف: ومتى كان ذلك؟

قال مالك: تلك كانت الساعة.

– معنى ذلك أن الشيوعية كان لها ختام الكلمة.

– نعم لأنها هى التى تكفلت بالإفساد الشامل.

– إذن هناك أمل..

قال إبليس: فى ماذا؟

فغمغم الدجال هامساً: فى الثورة الاشتراكية هنا فى الآخرة.

فقال إبليس فى استغراب: تانى.. وهل فى الآخرة غير الله رب العالمين أيها المعتوه.. وهل فى يومنا هذا حكم لأحد غير حكمه.. يا راجل افهم.

قال مالك ساخراً: على العموم ما دامت قد اختمرت فى رأسك الفكرة.. فهذا أنسب وقت لتلقى فيه مع الرفيق باناماريوف واتفقا معاً على الخطة.

قال الدجال متوسلاً: لا، أرجوك.. كله إلا باناماريوف.. أرجوك أقبل يديك وقدميك.. أقبل رأسك.. وأتوب.. وأرجع فى كلامى.. لا اشتراكية.. ولا شيوعية..

ولكن مالك كان قد بدأ يجره من رأسه ويكبه على وجهه فى جهنم ساحباً إياه كالدابة إلى زنزانته.

وكان الدجال.. يصرخ:

– الرحمة.. الرحمة.. ارحمونى.. تبت ملعون أبو الشيوعية.. طبقية طبقية.. زى ما أنت عاوزين.. بس سيبونى.. يا مغيث.. يا لطيف..

أفيون هذا الزمان

تتبارى أجهزة التليفزيون والإذاعة والسينما وصفحات المجلات والجرائد على شيء واحد خطير هو سرقة الإنسان من نفسه. شد عينيه وأذنيه وأعصابه وأحشائه ليجلس متسمرا كالمشدوه أمام التليفزيون أو الراديو أو السينما، وقد تخدرت أعصابه تماما، كأنه أخذ بنجا كليا وراح يسبح بعينيه مع المسلسلة، ويكد ذهنه متسائلا: من القاتل، ومن الهارب. وبين قاهر الجواسيس، وريتشارد كامبل، والأفيشات العارية في المجلات، والعناوين الصارخة في الجرائد ينتهي اليوم والليلة، ويعود الواحد إلى فراشه وهو في حالة خواء وفراغ وتوتر داخلي مجهول السبب، وحزن دفين كأنه لم يعش ذلك اليوم قط.

و الحقيقة أنه لم يعش بالفعل، وأن حق الحياة سلب منه، وأنه سلب من نفسه، وأخرج عنوة وألقي به في مغامرات عجيبة مضحكة، وتساؤلات لا تهمه على الإطلاق. من الذي قتل شهيرة هانم! ولماذا تخون كلوديا كاردينالي زوجها في رواية ((الذئب في فراشي)) ؟ وأين الكنز في مسلسلة عبيد الذهب؟ وأين الحقيقة في رواية ارحمني يا حبيبي؟

و يمر اليوم تلو اليوم. وتظل هذه الأجهزة تقوم بما يشبه العادة السرية للمتفرجين، وتغرقهم في نشوات مفتعلة إلى درجة التعب، ثم تلقي بهم إلى الفراش آخر الليل منهوكي الأحاسيس، لا يدري الواحد منهم ماذا به بالضبط. لماذا يشعر بأنه مجوف تماما. وأنه لا يعيش أبدا، وأنه لا يقول ما يريد أن يقوله، ولا يسمع ما يريد ان يسمعه، وإنما هو يربط في أرجوحة تظل تدور به دورانا محموما حتى يغمى عليه تماما وينسى ما كان يفكر فيه، وما كان يريد أن يقوله، وما كان يريد أن يسمعه، وما كان يملأ منه القلب والعقل. ويتحول إلى حيوان أعجم مربوط العقل والإحساس إلى هذه الأجهزة الغريبة التي تفتعل له حياة كلها كذب في كذب.

و هذه الظاهرة ظاهرة عالمية، بل هي من سمات هذا العصر المادي الميكانيكي الذي تحولت فيه أجهزة الإعلام إلى أدوات للقتل الجماعي.

و هو نوع من القتل الجميل الرائع. تخنق فيه العقول بحبال من حرير، وتخنق الخيالات بالعطور الفواحة. وتحاط فيه الشفاه بجدائل من شعر بريجيت باردو، وأرسولا انرس.

و كلما زادت مقاومة المتفرج لهذا الأفيون زاد المخرجون من المساحة العارية المسموح بها من صدر الممثلة ومن ساقيها، وسكبوا كمية من الدم أكثر في رواياتهم، وكمية من البترول المشتعل أكثر على أعصاب الناس.

و حينما تنفجر الأعصاب في ظواهر متشابهة مثل ظاهرة الخنافس والهيبز، ورقصات الجرك المجنونة، وأدب الساخطين والغاضبين واللاعنين، فهي دائما نتائج ذلك البخار المضغوط في جماهير الشباب التي قضي عليها بأن تعيش أسيرة عنكبوت الإعلام، والأخطبوط ذي الألف اسم. الإذاعة والسينما والجرائد. ذلك السجن ذي القضبان الجميلة من الأذرع العارية في المجلات والروايات لتعيش معزولة عن معركة المصير وعن الإدلاء برأي في مأساة الحياة والموت التي تجري على مساحة العالم كل يوم.

و حينما يدور الكلام عن عقار الهلوسة والماريجوانا، والحشيش، والهيروين، والكوكايين، والعصابات التي تروجه، فإنهم ينسون دائما مخدرات أكثر انتشارا وأخطر أثرا.

مخدرات تدخل كل بيت من تحت عقب الباب، وتقتحم على كل واحد غرفة نومه، وتزاحم إفطار الصباح إلى معدته وفنجان الشاي إلى شفتيه. تلك هي وسائل الإعلام التي تكاتفت فيما بينها - بتعاقد غير مكتوب - على أن تقتل الناس بقتل وقتهم، وتميتهم بالضحك والإثارة والنكتة البذيئة، وتلك الكلمة الغامضة اللذيذة التي اسمها التسلية.

و تحت شعار قتل الوقت يقتل الإنسان، ويراق دم اللحظات، ويسفك العمر، فما العمر في النهاية إلا وقت محدود. وما الإنسان إلا فسحة زمنية عابرة إذا قتلت لم يبقى من الإنسان أي شيء.

و مسئولية كل مفكر وكاتب أن يخرج على الخط، ويتمرد على هذا الاتفاق غير المكتوب بقتل الوقت في محاولة شريفة لإحياء وقت الناس بتثقيفهم وتعليمهم والبحث عن الحق، لا عن التسلية وإشراك الناس في مأساة مصيرهم، وإعادة كل واحد إلى نفسه وقد ازداد ثراء ووعيا لا سلبه من نفسه وسرقته من حياته، ورفع شعارات الحرية لتفسح الروح الإنسانية عن مكنونها.

على وسائل الإعلام أن تتحول من أفيون إلى منبه يفتح العيون والأحاسيس على الحقيقة، ويدعو كل قارئ إلى وليمة الرأي ويدعو كل عقل معطل إلى مائدة الفكر، فتكون كرحلة تحشد الحماس عند كل محطة تقف عندها لا كخيمة للغاز المسيل الدموع مضروبة على الناس أو قنابل دخان تطلق للتعمية.

إن حضارة الإنسان وتاريخه ومستقبله رهن كلمة صدق وصحيفة صدق وشعار صدق. فبالحق نعيش، وليس بالخبز وحده أبدا.

و إذا كان السؤال المطروح الآن:

ما هي صحافة اليوم؟

فهاأنذا أقول لكم الجواب:

أن نقول الحق.

و أن نقول الجد.

و أن نقول المفيد والنافع والصحيح.

و أن نحيي وقت القارئ لا أن نقتل وقته.

السلطان الحقيقي

قل لي فيم تفكر أقل لك من أنت.

هل أنت مشغول بجمع المال وامتلاك العقارات وتكديس الأسهم والسندات؟ أم مشغول بالتسلق على المناصب وجمع السلطات والتحرك في موكب من الخدم والحشم والسكرتيرات؟ أم أن كل همك الحريم وموائد المتع ولذات الحواس وكل غايتك أن تكون لك القوة والسطوة والغنى والمسرات..

إذا كان هذا همك فأنت مملوك وعبد.

مملوك لأطماعك وشهواتك، وعبد لرغباتك التي لا شبع لها ولا نهاية.

فالمعنى الوحيد للسيادة هو أن تكون سيدا على نفسك أولا قبل أن تحاول أن تسود غيرك. أن تكون ملكا على مملكة نفسك. أن تتحرر من أغلال طمعك وتقبض على زمام شهوتك.

و القابض على زمام شهوته، المتحرر من طمعه ونزواته وأهوائه لا يكون خياله مستعمرة يحتلها الحريم والكأس والطاس، والفدادين والأطيان والعمارات، والمناصب والسكرتيرات.

الإنسان الحقيقي لا يفكر في الدنيا التي يرتمي عليها طغمة الناس.

و هو لا يمكن أن يصبح سيدا بأن يكون مملوكا، ولا يبلغ سيادة عن طريق عبودية. ولا ينحني كما ينحني الدهماء ويسيل لعابه أمام لقمة أو ساق عريان أو منصب شاغر. فهذه سكة النازل لا سكة الطالع.

و هؤلاء سكان البدروم حتى ولو كانت أسماؤهم بشوات وبكوات، وحتى ولو كانت ألقابهم، أصحاب العزة والسعادة.

فالعزة الحقيقية هي عزة النفس عن التدني والطلب.

و ممكن أن تكون رجلا بسيطا، لا بك، ولا باشا، ولا صاحب شأن، ولكن مع ذلك سيدا حقيقيا، فيك عزة الملوك وجلال السلاطين، لأنك استطعت أن تسود مملكة نفسك.

و ساعتها سوف يعطيك الله السلطان على الناس. ويمنحك صولجان المحبة على كل القلوب.

انظر إلى غاندي العريان.. البسيط.. كم بلغ سلطانه؟

كان يهدد بالصوم فيجتمع مجلس العموم البريطاني من الخوف وكأن قنبلة زمنية ستقع على لندن. وكان يجمع أربعمائة مليون هندي على كلمة يقولها. وكأنها السحر.

هذا هو السلطان الحقيقي.

هذا هو الملك الحقيقي الذي لا يزول.

الحريم والقصور والكنوز والثروات والعمارات مصيرها إلى زوال.

لن تأخذها معك إلى تابوتك. سوف تنتقل إلى الورثة.. ثم إلى ورثة آخرين، ثم تصبح خرائب مع الزمن.

أما محبة الملايين فسوف تصاحبك في تابوتك وتظل علما على اسمك مدى الدهر. كما تفوح الذكرى عطرة تضوع بالشذا كلما جاء اسم غاندي على الألسن.

الغنى الحقيقي أن تستغني.

و الملكية الحقيقية ألا يملكك أحد، وألا تستولي عليك رغبة، وألا تسوقك نزوة.

و السلطنة الحقيقية أن تكسب قيراط محبة في دولة القلوب كل يوم.

تذكر أن الذين يملكون الأرض تملكهم. والذين يملكون الملايين، تسخرهم الملايين، ثم تجعل منهم عبيدا لتكثيرها، ثم تقتلهم بالضغط والذبحة والقلق. ثم لا

يأخذون معهم مليها.

صدقني هؤلاء هم الفقراء حقا.

***

من أين تنبع السعادة

منذ ألف سنة كان السفر إلى اليمن على الأقدام يحتاج إلى أعوام. يحمل المسافر خيمته وزاده وزواده وزكائب التمر والبلح والخبز المكسر ويتوكل على الله.

و بين الفيافي والجبال والوهاد والأحراش يطل عليه الموت من أنياب ذئب جوعان، أو قاطع طريق متربص، أو حر لافح يقصم الظهر، أو برد قارص يثلج العظام.. فإذا وصل سالما فهو قد ولد من جديد، وهي الفرحة التي لا تدانيها فرحة.

و المليونير على أيامها لم يكن يمتاز على الصعلوك إلا في الخيول المطهمة.

كان الفرس هو السيارة التي تختصر الأعوام في شهور، وكانت هذه هي سرعة البرق زمان.

و عرفنا السفن الشراعية لننتقل من أهوال البر إلى أهوال البحر.

يقلع المسافر فيمسك بأنفاسه وقد أدرك أنه أسلم نفسه إلى غول لا يعرف الرحمة. فإذا وصل إلى بر الأمان دقت له الطبول والمزامير، واستقبلته الأحضان، وسجد لله شكرا من فرحة الوصول.

أما اليوم فنحن نقطع المسافة بين القاهرة وأسوان في ساعات بالقطار، ونشعر طول الوقت بالملل والضجر والبطء، وننظر إلى ساعاتنا، حتى إذا وصلنا سالمين بدأنا نسب ونلعن لأننا تأخرنا نصف ساعة.

و نركب الطائرة النفاثة لنصل إلى بيروت في دقائق، ونشكو مر الشكوى لأن الضباب والعواصف أخرت وصولنا عشر دقائق.

و حينما نسافر غدا بالصواريخ إلى المريخ سوف نكون أكثر مللا وتعجلا وسنقول: ما هذه الصواريخ اللكع؟ ألا يعرفون في مصلحة الصواريخ قيمة الوقت؟

و سوف تتضاعف قيمة الوقت بالفعل..

ستكون الساعة كافية للدوران حول العالم، وسيكون الشهر مهلة عظيمة لجولة في المجموعة الشمسية.

و سوف تزداد الإمكانيات، ولكن سوف تتضاءل السعادة.

و كلما ازدادت الإمكانيات ازداد الطمع.

و كلما ازدادت السرعة ازدادت العجلة.

و كلما ازداد الترف ازدادت الشكوى.

تماما مثل حكاية الغني الذي يزداد طمعا كلما ازداد ثراء.

و هذا شأن المكاسب المادية، كلما ازدادت ازداد الافتقار إليها وإلى المزيد منها، وبالتالي ازدادت التعاسة.

لأن السعادة موطنها القلب وليس الجيب، ولا عبرة فيها بازدياد الإمكانيات المادية.

السعادة تنبع من الضمير. ومن علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالله وهي في أصلها شعور ديني وليست شعورا ماديا.

و هي تنبع من إحساس الإنسان بأنه ليس وحده وأن الله معه، وأن العناية تحوطه والإلهام الخير يسعفه، وأنه يقوم بكل واجباته.

و لهذا يمكن أن ينتحر مليونير يملك باخرة وطائرة وعدة ملايين من الدولارات في حين تجد الراهب الذي يعيش على الكفاف يضيء وجهه بسكينة داخلية لا حد لها، ويسارع إلى نجدة الآخرين في محبة وسعادة، لأنه يؤمن بأن للحياة معنى وحكمة، وأنها لم تخلق عبثا، وإنما خلقها العادل الرحيم.

بعض التواضع

نحن في عصر العلم ما في ذلك شك. صواريخ.. طائرات.. أقمار صناعية.. أدمغة إليكترونية..

و نحن في عصر الجهل ما في ذلك شك. فكل هذه الوسائل والاختراعات العلمية نستخدمها في قتل أنفسنا وفي التجسس على أنفسنا.

و الذي لا يقتل يقول في غرور. أنا الذي سوف أسبق إلى القمر.. أنا شعب الله المختار.. أنا على حق والآخر على باطل.. أنا أبيض.. أنا جنس آري.. أنا جنس سامي..

و بين الغرور والاستعلاء والكبرياء والعدوان يضيع العلم، ويفتضح العلم، فإذا هو تفاخر الجهلاء بما يصنعون من لعب أطفال.

و أجهل الجهل أن نجهل أمرا جوهريا واضحا كالنهار.

أن يجهل العالم العظيم والمخترع العبقري أنه مخلوق.. وأنه يعيش على سلفة.. على قرض.. السنوات القليلة التي يعيشها هي قرض وسلفة بأجل محدود.. وأنه لا يملك هذا القرض ولا يستطيع أن يمد في أجله.

كل ((نبضة قلب))، وكل خفقة أنفاس، وكل خاطر، وكل فكرة، وكل خطوة، هي قرض.. سلفة.. هي قرش ينفق من الرصيد.

و هو رصيد لا نملكه ولم نبذل فيه جهدا.. وإنما هو عطاء مطلق أعطي لنا منذ لحظة الميلاد.

المخترع لا يخترع وإنما يجيئه الخاطر كما ينزل ندى الفجر على الزهر.

و الشاعر لا يؤلف من عدم، وإنما يهبط عليه إلهام الشعر فيورق عقله كما يورق الشجر في الربيع.

فهل يمتلك الشجر أزهاره أو أنها هبة الربيع؟

و العلم ذاته هبة.

الكهرباء موجودة منذ الأزل من قبل أن تكتشف بملايين السنين، وهي التي كانت تضيء السماء بالبروق والصواعق.

نحن لم نخترع الكهرباء ولم نأت بها، فهي موجودة. وكذلك إشعاع الراديو وطاقة الذرة ومغناطيسية الحديد.

كل هذه كنوز موجودة تحت أيدينا..

و هي بعض الهبات التي وهبناها دون أن نطلبها.

نحن العلماء لا ندرك هذا وإنما نقول: اخترعنا. ابتكرنا، صنعنا، ألفنا، صنفنا.

ثم لا ندرك ما هو أخطر وأكثر وضوحا وبداهة.. إن العمر الذي نعيشه هو أيضا هبة لم نطلبها ولم نجتهد فيها.

الجميلة لم تجتهد لتولد جميلة.

و القوي لم يجتهد ليولد قويا.

و الحاد البصر لم يجتهد ليولد حاد البصر.

و نحن لا نقوم بصيانة هذا الشيء المعقد الملغز المعجز الذي اسمه الجسد الحي.. وإنما هو الذي يقوم بصيانة نفسه بنفسه بأساليب محيرة.

نحن ننفق من شيك لا نملكه.. ومع ذلك نتبجح طول الوقت.. ونقول.. نحن اخترعنا نحن صنعنا.. نحن عباقرة.. نحن عظماء.. نحن على حق والآخرون على خطأ.. نحن بيض وهم حيوانات.. نحن جنس سامي وهم جنس منحط، ثم نقتتل على ثروات لا نملكها ولا فضل لنا فيها جميعا.

و لا فضل لنا حتى في تكويننا الجسماني.

نحن مجرد مخلوقات تولد وتموت وتعيش على هبة محدودة من الخالق الذي أوجدها، ولو كنا نملك أنفسنا حقيقة لما كان هناك موت.

و لكن الموت هو الذي يفضح القصة.

هو الذي يكشف لنا أن ما كنا نملكه لم نكن نملكه.

الشيخوخة هي التي تفضح جمال الجميلة فإذا بجمالها هبة زائرة لا حقيقة باقية.

و لكننا نحن العلماء نجهل هذه الحقيقة الأولية الشاخصة ملء العين كشمس النهار.

و لو أدركنا هذه الحقيقة البسيطة لانتهت الحروب وحل السلام وملأت المحبة القلوب وأشرق التواضع ليجمع العالم في أسرة واحدة.

لو أدركنا هذه الحقيقة لالتفتنا التفاتة شكر إلى الوهاب الذي وهب.

هل أخطئ إذا اعتبرت هذا العصر أظلم عصور الجاهلية؟!

***

عالم الغيب

أنت تصادف اليوم نوعا من الناس تجد الواحد منهم يتأبط كتابا ضخما بالإنجليزية أو الفرنسية، ويبرز من فمه سيجارا ضخما ينفث الدخان كمدخنة مصنع في لانكشير، فإذا رفعت يدك بالتحية رد عليك باللاتينية وبلسان معووج يتكلم برطانة أوروبية.. ومع الدخان المتصاعد والفتات المتناثر من عدة لغات يقول لك في نبرة كلها انبعاج وخيلاء:

- هل قرأت ما يقوله جوستاف لوفافر في الدجوماطيقية والفكر الاستطايقي والتدهور الرومانطيقي والانحرافات السيكوباتية في المجتمعات الثيوقراطية.. في ملحق مجلة "الميتافيزيقا".. إنه مقال رائع (ويقلب شفتيه).

مالنا نقف هكذا وسط الطريق.. دعني أدعوك على كأس في الهورس شو.. تعال.. سيكون حديثا ممتعا على أكواب البيرة.

فإذا اعتذرت له بأنك صائم حملق في دهشة كأنه يستمع إلى كلام ديناصور منقرض.. وفغر فاه تماما ثم قهقه، بل انفجر ضاحكا وكأنما ظفر بمعتوه هارب لتوه من مستشفى المجاذيب:

- تقول إنك صائم؟

و عاد يقهقه هذه المرة في إشفاق:

- وهل هناك من يصوم هذه الأيام.. هل تعتقد حقا في هذه ال.. ثم أشاح بيده استخفافا، فالمسألة لا تستحق عنده أن يبحث لها عن اسم.

و هو يقصد طبعا هذه الأديان.. والخرافات.. والأساطير.

- هل تصدق حقا أنك سوف تموت ثم تبعث وتصحو من قبرك وتحاسب.. وأن هناك إلها؟

ثم راح يتلفت حوله متسائلا:

- أين هو؟

يقصد أين الله. وكأنه يبحث عن سائق تاكسي.

- أتصدق هذه الغيبيات؟ أما زال هناك من يصدق هذه الغيبيات في عصر النور والعلم؟ أفق يا رجل من هذه الدروشة.. تعال.. لتكن الدعوة على كأس ويسكي لا بيرة، ولتكن معها شريحة لحم خنزير رائعة.

و يحمل عليك حملة شعواء بجميع اللغات لدرجة تفقدك التوازن وربما الثقة بالنفس، فتعود لتتعلل في خجل بأنك ممنوع من الأكل والشرب بسبب التهابات في المعدة. ويسوق هو في فلسفته:

- يا أخي نحن في عصر العلم، ولا يصح أن نستسلم لهذه الغيبيات، ولا يصح أن نؤمن بشيء إلا إذا أمسكناه بحواسنا الخمس، ورأيناه بالميكروسكوب، وشاهدناه بالتلسكوب، ورصدناه بالرادار، والتقطناه بالراديو. لا يصح الإيمان بغيب هذا أمر انتهى.

الغيب أمره انتهى، وهو الآن شغلة السذج.. هي كلمات نسمعها الآن عادة من هؤلاء المثقفين.

و لمثل هؤلاء المثقفين من أصحاب السيجار والياقات العالية والرطانة الأوروبية أقول في هدوء:

- بل هذا العصر هو عصر الغيب.. والعلم ذاته هو اعتراف بليغ بالغيب. وإلا فليقل لي واحد من هؤلاء العلماء.. ما هي الكهرباء؟ إننا نتكلم عن الكهرباء ولا نعرف عنها إلا آثارها من حرارة وضوء ومغناطيسية وحركة.. أما الكهرباء ذاتها فهي غيب. نتكلم عن الإلكترون ونقيم صناعات إلكترونية ولا نعرف ما هو الإلكترون.. فهو غيب ونطلق الموجة اللاسلكية ونستقبلها ولا نعلم عن كنهها شيئا. وهي بالنسبة لنا غيب. بل

إن الجاذبية التي تمسك بالأرض والشمس والكواكب في أفلاكها وهي أولى البداهات هي ذروة الغيب.

و العلم لا يعرف إلا كميات ومقادير وعلاقات ولكنه لا يعرف كنه ولا ماهية أي شيء.

أنت تعرف طولك وعرضك ووزنك ومواصفاتك.. لكن ذاتك.. نفسك.. روحك.. لا تعرف عنها شيئا. إنها غيب.. ومع ذلك هي أكثر واقعية من أي واقع.

و إذا كان الواحد منا لا يعرف ذاته فكيف يدعي المعرفة بذات الله؟ ومن باب أولى كيف ينفيها؟

و حينما يقول المفكر المادي. في البدء كانت المادة.. في البدء الأول قبل الإنسان والحيوان والنبات.. ألا يكون كلامه هو الجرأة بعينها على منطقة زمنية هي الغيب المطلق.

و حينما يقول: نضحي بالجيل الموجود في سبيل جيل لم يولد بعد.. ألا يكون معنى كلامه التضحية بالواقع في سبيل الغيب؟

صدقوني نحن في عصر الغيب بل للأسف نحن في عصر الزنى بالغيب، والدعارة بالعلم على يد أصحاب السيجار والياقات المعالية، والرطانة الأوروبية.

***

الذي شنق نفسه بسلك الكهرباء

روسيا وأمريكا التقتا وتصافحتا في الفضاء ولم تستطيعا أن تلتقيا على الأرض.

الإنسان قطع ربع مليون ميل إلى القمر ولم يستطع أن يقطع بضع خطوات لينقذ جارا له يموت في فيتنام وكمبوديا والقدس.

المسافات بين قلوب الناس أصبحت أكبر من المسافات بين الكواكب، وكل يوم يزداد الأخ عن أخيه تجافيا وبعدا.

إنسان اليوم بدل أن يشغل نفسه بقتل الميكروبات أصبح يزرعها ويسمنها ويربيها ثم يصنع منها قنبلة ميكروبية ليلقيها على جاره.

و يجاوب عليه جاره بنفس أسلوبه ضاحكا في جنون.

- قنبلة ميكروبية.. وما جدواها؟ لقد سبقتك لقد اكتشفت غازا للشلل أرميه عليك فترقد مشلولا مثل صرصور قلبوه على ظهره، فيصفق الآخر ويهلل كالمعتوه.

- قديمة.. أنا عندي صواريخ مدارية تدور الآن في فلك حولك وأستطيع بضغطة واحدة على زر أن أنزل عليك الموت كالمطر.

فيخرج الآخر لسانه ساخرا.

- هذه لعبة فات أوانها، فقد اخترعت صواريخ مضادة تصطاد صواريخك وتفجرها في الهواء.

فيهتف الآخر:

- لن تستطيع، فقد بنيت شبكة مضادة ضد الصواريخ المضادة.

فيقهقه صاحبنا:

- نسيت يا أبله أنني بنيت شبكة ضد الشبكة.

فيصرخ الأول:

- هاها.. أنت حمار تذكر أن عندي مخزونا من القنابل الذرية يكفي لتمزيق القارة التي تسكنها.

فيصرخ الثاني:

فلتذكر أنت أيضا أن عندي مخزونا من القنابل الأيدروجينية يكفي لشطر الكرة الأرضية كلها نصفين.

و أعجب ما في هذا الحوار الهستيري أنه يجرى بالعلم والعقل، والمخترعات والمبتكرات، والأفخاخ الإلكترونية وأنه حوار ينزف ذهبا ودولارات وماركات وروبلات وفرنكات بلا نهاية.

و رجل الشارع البسيط يمشي وسط هذه المظاهرة جائعا وعريانا قليل الحيلة لا يعرف بماذا يطلع عليه الغد.

هل هذا عصر العلم؟

أو عصر الجهل؟

أو أنه جهل العلم.

الله يعطينا الكهرباء.. فماذا نفعل بهذه الكهرباء؟!

إننا لا نفكر كيف نحولها إلى نور.

و لكننا مشغولون طول الوقت في المعامل والمختبرات نفكر كيف نحول هذه الطاقة الكهربائية إلى ظلام.

العالم يفكر في أذكى طريقة يلف بها سلك الكهرباء على عنقه لينتحر.

إنه علم الجهل!

إنه العلم الأسود.

و مثله مثل السحر الأسود الذي كان يحول به سحرة فرعون العصي إلى ثعابين.

لأنه علم بلا دين!

و عقل بلا قلب.

لقد طالت مخالبنا فأصبحت مخالب نووية.

و نمت أنيابنا فأصبحت أنيابا ذرية.

و ظل قلبنا على حاله. قلب حيوان الغاب.

تطور الإنسان إلى تنين.

و النهاية الآن مرهونة بمن يبدأ الحماقة. من يضغط على الزناد قبل الآخر!

أو من يفطن إلى الكارثة فيقود التطور إلى الاتجاه المضاد إلى تجاه التسامي بقلب الإنسان وروحه. بدون اعتبار لقوة يديه ومتانة عضلاته.

***

قطار اللذة

منذ ألف سنة كان أقصى ما يطمح فيه إنسان قطعة أرض وبضعة رؤوس من الماشية.. كان هذا هو الثري الأمثل في ذلك العصر.. وكان أقصى ما يحلم به ذلك الثري هي عربة مطهمة يجرها حصان ليدخل بها مجتمع الوجهاء وأهل الشياكة.

و اليوم نقول عن من يملك العربة والحصان إنه ((عربجي)) وهو في اعتبارنا من الناس الدون.

أما أهل الشياكة والوجاهة فقد استبدلوا بالأرض العمارات.. ثم استبدلوا بالعمارات الشركات.. ثم استبدلوا بالشركات مجرد دفتر سندات أو دفتر شيكات بحجم الجيب.. مجرد رأس مال يتوالد من تلقاء ذاته بالإسهام في أي مشروع.

و انتهى إسطبل المواشي ليحل محله كراج عربات مرسيدس.. ثم انتهى أمر الكراج وتركه الأغنياء للسوقة والناس الدون.. وصار الواحد منهم يمتلك طائرة خاصة أو مرسى لليخوت أو باخرة.

و غدا تصبح الطائرات من أملاك الفقراء ويظهر الأغنياء الوجهاء الذين يملكون الصواريخ والسفن الفضائية والأقمار الصناعية، وتصبح رحلة ((الويك إند)) عشاء ساهرا في المريخ.

الزمن استدار وانتقل الناس من حال إلى حال بسرعة غريبة، وأحلام زمان أصبحت الآن متاحة للكل.

و الفلفل والحبهان الذي كانت تحمله السفن من الهند عبر رأس الرجاء الصالح في رحلات مهلكة محفوفة بالأخطار ليوزن بالذهب ويوضع في الخزائن مع المجوهرات ولا يظهر إلا على موائد أصحاب الملايين.. ومثله مناديل الحرير الهندي التي كنا نقرأ عنها في بيوت اللوردات في روايات زولا وبلزاك.. كل هذا نزل ليصبح في متناول السوقة.

و الفلفل والحبان الآن عطارة الفقراء.

و الحرير طرده النيلون والداكرون والتريلين من السوق فهبط إلى نصف ليرة للمنديل، وأصبح زينة متاحة للخدم وعاملات ((المحلات)). أي إنسان من مستويات الدخل البسيطة يستطيع الآن أن يحصل على كثير من وسائل الترف التي كانت تحلم بها جدتي وجدي ويسيل لها اللعاب.

و مع ذلك فالبؤس موجود والتعاسة مازالت هي القاعدة والشكوى مستمرة على جميع المستويات.. تشهد بذلك أعمدة الصحف والأغاني والكتب وأخبار الإذاعات ووجوه الناس المربدة المتجهمة في الشارع ومشاكساتهم الدائمة وصدورهم الضيقة بكل شيء.

لا شيء مما تصور الإنسان أنه سوف يسعده قد أسعده وهو ما كاد يمتلك ما كان يحلم به حتى زهد فيه وطلب غيره.. وهو دائما متطلع إلى ما في أيدي الآخرين غافل تماما عما في يده.. ينسى زوجته ويرغب في زوجة جاره مع أن زوجته أحلى وأجمل.. ولكنها الرغبة التي لا تشبع، والتي يتجدد نهمها دائما وبتفتح شهيتها على كل ممنوع ومجهول.

و لهذا أقام بوذا ديانته على قتل الرغبة والخلاص منها باعتبارها سبب الشقاء، ولا خلاص من الشقاء إلا بالخلاص من الرغبة وقتلها والوصول إلى حالة من السكينة الداخلية الزاهدة في كل شيء والعازفة عن جميع الرغبات.

و الله يكشف لنا الحقيقة بشكل أعمق في القرآن فيقول إنه خلق الدنيا ولها هذه الطبيعة والخاصية فهي ((متاع)).

((إنما هذه الحياة الدنيا متاع)).

و ((المتاع)) هو اللذة المستهلكة التي تنفذ.. من خصائص الدنيا كما أرادها خالقها أن جميع لذاتها مستهلكة تنفذ وتموت لحظة ميلادها.

في كل لذة جرثومة فنائها..

الملل والضجر والعادة ما تلبث أن تقتلها..

هي الطبيعة التي أرادها الله للدنيا، لأنه أرادها دار انتقال لا دار قرار.. ولهذا جعل كل لذة بلا قرار ولا استقرار.. لأنه لم يرد لهذه اللذات أن تكون لذات حقيقية وإنما أرادها مجرد امتحان لمعادن النفوس.. مجرد إثارة تختبر بها الشهامة والنبل والعفة وصدق الصادقين وإخلاص المخلصين.

و الذي يدرك هذا سوف يستريح تماما ويكف عن هذه الهستيريا التي تخرجه من شهوة لتلقي به في شهوة، وتقوده من رغبة لتلقي به في أتون رغبة، وتجره من جنون لترمي به في جنون.

سوف يريح ويستريح ويحاول أن يروض نفسه ويستصفي روحه ويطهر قلبه ويعمل للعالم الآخر الذي وعد به الله جميع أنبيائه بأنه سيكون العالم الذي تكون فيه اللذة حقيقة.. والألم حقيقيا.

و هو لن يندم على ما سوف يفوته من لذات هذه الدنيا، لأنه علم تماما وبالتجربة والممارسة أنها لذات خادعة تتفلت من الأصابع كالسراب.. وهو قد قرأ التاريخ وعرف أن مال قارون لا يزيد الآن بالحساب الحالي عن عدة مئات من الجنيهات بالعملة النحاسية.. وهكذا قدرت جميع خزائنه بالإسترليني.. وما أكثر من يملك مئات الجنيهات الآن ويشكو الفقر، ويلعن اليوم الذي ولد فيه.. مع أنه بحساب التاريخ أغنى من قارون.

إنها الخدعة الأزلية..

تحلم بامتلاك الأرض فإذا بالأرض هي التي تمتلكك وهي التي تكرسك لخدمتها..

تتصور أن المال سوف يحررك من الحاجة فإذا بالمال يفتح لك أبواب مطالب أكثر وبالتالي يلقى إلى احتياج أكثر.. وكلما أحرزت مليونا.. احتجت إلى ثلاثة ملايين لحراسة

هذا المليون وضمانه..

و تدور الحلقة المفرغة ولا نهاية.

و هذه طبيعة عالمنا الكذاب الذي نمتحن فيه.

كلنا نعلم هذا.. ومع ذلك لا نتعلم أبدا.

***

يوجا

سعيت وراء علماء التشريح لأعرف ما هو الإنسان..

سرت وراء المشرط وهو ينقب في الأحشاء والمصارين واللحم والعظم.. وهو يفتح القلب ويتتبع الأعصاب حتى نهايتها.. وهو يقطع المخ نصفين، ثم يقطع كل نصف إلى نصفين.

و بعد ثلاثة آلاف صفحة من كتب التشريح لم أصل إلى شيء وكأنما فتحت حقيبة فوجدت داخلها حقيبة ثم حقيبة، وفي نهاية المطاف اكتشفت أني مازلت واقفا في مكاني أدق على الباب نفسه من الخارج، لم ألج إلى الداخل قط.

كنت طول الوقت أتحسس كسوة ذلك الإنسان لاكتشف أن القناع الذي يحجبه ليس ثيابه وحدها.. وإنما جلده ثوب آخر.. ولحمه وشحمه وعظامه كلها ثياب.. أما هو نفسه فبعيد.. بعيد.. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم.

قالت لي كتب التشريح إن الإنسان مجموعة من الأحشاء في قرطاس من الجلد.

و لكنها لم تصف لي الإنسان على الإطلاق، وإنما وصفت ثيابه.. أما قلبه، أما عواطفه، فإنها ليست في تلك الكتب.. إنها فينا نحن الأحياء.

إنها الزامر الذي ينفخ من الداخل في ذلك البوق الجسدي الذي يتألف من الفم واللسان والشفتين واليدين والرجلين فتنطق وتتحرك كأنما هي دمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء خباء.

إنها العاطفة.. الإرادة.. الروح.. النفس.. الـ أنا.. سمها كما تشاء.. ولكنها دائما غاية في الوحدة والبساطة.

وراء هذا العديد المتعدد من الأعضاء هناك وحدة..

هناك دائما واحد فقط يتكلم من داخل المعمار الجسدي المعقد التركيب المتعدد النوافذ والشرفات.. واحد فقط بالرغم من هذه الألوف المؤلفة من الأنسجة والملايين بلا عدد من الخلايا.

فإذا نظرت إلى الطبيعة حولك بما يتعدد فيها من إنسان وحيوان ونبات لمست مرة أخرى نوعا ثانيا من الوحدة.. فهذا الشتيت المختلف من أشكال الحياة يخفى وراء وحدة.

ليست مصادفة أن تركيب جسمي وتركيب جسمك واحد.. ولا هي مصادفة أننا، لنا رئتان مثلما للحصان والحوت والعصفور.. وأن رقبة الزرافة على طولها بها سبع فقرات مثل رقبتك القصيرة تماما.. وأن ذيل القرد لك ذيل مثله ضامر متدامج ملتحم في مؤخرتك.. وبالمثل أجنحة الخفافيش هي أذرع مثل أذرعك لها العدد نفسه من الأصابع والعظام والمفاصل، كل ما تمتاز به أن جلدها مشدود عليها كالستارة.

و أنت والشجرة تتألفان من المواد ذاتها.. كربون وماء وأملاح معدنية.. وكلاكما تتحولان بالاحتراق إلى فحم.

و كل أنواع الحياة تنهدم بالموت فتستحيل إلى تراب.

أكثر من هذا، يقول لك الفلكي: إن هذا التراب يحتوي على المواد نفسها التي تتركب منها الشمس والنجوم والكواكب.. وإنك مهما أوغلت في السماء بين النجوم تجد دائما الشيء نفسه، والمواد ذاتها..

كل العالم من مادة واحدة أولية.

لا يمكن أن تكون كل هذه مصادفات.

و إنما هي إصبع تشير إلى أن هناك وحدة نسيج في هذا الكون المتسع العظيم، وأنه بالرغم من الكثرة الظاهرة والتعدد والاختلاف في الأشياء فإنها في الواقع ليست مختلفة.. وإنما هي مجرد عمائر وتراكيب مختلفة لشيء واحد.

كما تظهر الطاقة مرة على شكل كهرباء، ومرة على شكل حرارة، ومرة على شكل ضوء، ومرة على شكل مغناطيسية، وهي دائما الشيء الواحد ذاته.

الوحدة..

هذا هو موضوع اليوجا..

و المعنى الحرفي لكلمة يوجا بالهندية هو ((الاتحاد وإدراك الوحدة في الأشياء)).. ألا تنظر إلى الدنيا على أنها أنت وهو وهي وهم.. ثم تتقاتلون جميعا.. فهذه خدعة.. وأنتم جميعا واحد، وما يقع للآخر يقع عليك من حيث لا تدري.. والألم الذي توقعه بالآخرين يجرحك حيث لا تحس في أعمق الأعماق.

هذا الصراع بينك وبين الآخرين هو تخريب أساسي لفطر واحدة.

إذا أردت أن تعيش بكل وجودك فعليك أن تفتح ذراعيك لتحتضن كل شي.

و حيثما توجهت لن تكون في غربة، فالطبيعة حولك هي أنت.. والناس هم أنت.. والوردة هي أنت.. والنجوم أنت.

أنت وأنا وهم شيء واحد.

هل تستطيع أن تدرك هذه الوحدة؟

علوم اليوجا تقول إنك لا تستطيع أن تدركها إلا إذا تحررت من تقاليدك.. وأخضعت جسدك وعواطفك وغرائزك وعقلك تماما.

إذا أردت أن تسمع صوت الواحد في داخلك فلا بد من إسكات صوت المتعدد أولا.. لابد من إسكات صوت الجسد والنفس والغريزة والرغبة والعقل.

و إخضاع الجسد تختص به علوم ((الهاتايوجا)) وهي التمرينات الرياضية المعروفة.

و إخضاع العقل تختص به علوم ((الراجايوجا)).. وهي تمرينات على التأمل والركيز.

و إذا استطعت إسكات كل شيء فسوف تسمع من أعماق الصمت في داخلك صوت الواحد..

سوف تشعر بالقرابة الحميمة بينك وبين الأشياء.. سوف يعزف في داخلك لحن الانسجام بينك وبين العالم، إذ تدرك التوافق العميق بين عناصرك وعناصره.. وتسودك طمأنينة قدسية فلم يعد هناك داع للتعجل.. ما يفوتك باليمين سوف تحصل عليه باليسار وفي الهند يسموا هذا الواحد ((اتمان)).. وفي صلاة هندية قديمة لهذا الواحد يقول الشعر السنسكريتي:

إذا ظن القاتل أنه قاتل

و المقتول أنه قتيل

فليسا يدريان ما خفى من أساليبي..

حيث أكون الصدر لمن يموت

و السلاح لمن يقتل

و الجناح لمن يطير

و حيث أكون لمن يشك في وجودي

كل شيء حتى الشك نفسه..

و حيث أكون أنا الواحد

و أنا الأشياء.

و كأنما شعر جميع المفكرين بهذا الواحد الخفي، وحاول كل منهم أن يعبر عنه

بطريقته.. في فلسفة شوبنهور كان اسمه ((الإرادة))، وفي فلسفة نيتشه كان اسمه ((القوة))، وفي فلسفة هيجل ((المطلق))، وفي فلسفة ماركس ((المادة))، وفي فلسفة برجسون ((الطاقة الحية))، وفي جميع الأديان السماوية اسمه الله.

اتفقت جميع الأصابع التي تشير على أن هناك شيئا داخل خباء ذلك الكون يحرك خيوطه.. وكل الخلاف هو خلاف أسماء.

و لهذا تقول علوم اليوجا.. لا تحاول أن تسمي ما لا يمكن تسميته.. تأمل.. لا تنطق بحرف.. عليك بالإصغاء إلى صوت الصمت.

ثم جاء الإسلام بأجمل وأصدق تعريف بذلك الذي من وراء الصمت.. لم يخلط الخالق بالمخلوق كما خلطت اليوجا الهندية كل شيء في وحدة الوجود فجعلت من القاتل والقتيل والسكين شيئا واحد تضيع معه المسئولية ويضيع الجزاء في ضباب الشعر.. وإنما قدم القرآن أنقى صور التوحيد وأرقى صورة لوحدة الخالق ووحدة المخلوقات.. فتوحدها لأنها منه.. أم هو فمتعال عليها.. سبحانه.. ليس كمثله شيء..

***

العيال الذين ظنوا أنفسهم كبارا

أحيانا تراودني الرغبة في البكاء مثل طفل صغير يتيم تاهت عنه أمه في الزحام. وأشعر في تلك اللحظات أننا جميعا أطفال لا فرق كبير يذكر بيننا وبين أطفالنا في علمنا ومعارفنا وأخلاقنا.

يخيل إلينا أننا اخترقنا السماوات بعلومنا. ولو فكرنا قليلا لوجدنا أننا مازلنا في حروف أ . ب . ت . ث .. وأننا كأولادنا على عتبة واحدة من الحيرة والتساؤل والجهل.

يقول لك طفلك وهو يشاور على القمر: من أين جاءوا بهذا القمر يا أبي؟

و تجاوب عليه بكلام كثير. وتتلو عليه نظريات وافتراضات خلاصتها أنه لا أحد يعرف الحقيقة. ولا حتى أينشتين نفسه.

و يسألك طفلك عن جده الذي مات أين ذهب منذ موته.

و عن أخيه الذي ولد أين كان قبل مولده.

فلا تعرف جوابا.

فلا أحد يعرف ماذا قبل الميلاد ولا ماذا بعد الموت. ولا من أين. ولا إلى أين.

و يشاور لك على الكهرباء ويقول ما هذا؟ فتقول الكهرباء.

و يسأل ما هي الكهرباء فلا تجد جوابا.

و يسأل من أين أتت الكهرباء.

فتحكي له حكاية طويلة عن ماكينات النور ووابور النور. وأنت لا تدري ما النور. ولو سألت علماء الطبيعة كلهم ما وجدت فيهم واحدا يستطيع أن يدلك على ماهية النور وكنهه، ولا حتى نيوتن، ولا أفوجادرو، ولا فاراداي.

و ما أجهلنا على الدوام.

ابتكرنا علم النفس وكتبنا فيه المراجع ونحن لا ندري ما هي النفس.

و اخترعنا الساعات لنقيس الزمن ونحن لا نعرف ما هو الزمن.

و سكنا الأرض منذ ملايين السنيين ومازلنا لا نعرف عنها إلا قشرتها.

و يجتمع شهود الحادثة الواحدة فيختلفون في روايتها ويحكيها كل واحد بصورة. وهذا شأن الحادثة التي لم تمر عليها ساعة فما بال التاريخ الذي مر عليه ألوف السنين وكتبت فيه المجلدات، وكلها تخييل.

و ما أبعدنا دائما عن الحقيقة.

و ما أقل ما نعلم.

و ما أقرب الفارق بيننا وبين أطفالنا في علمنا ومعارفنا.

بل ما أقرب الفارق بيننا وبين أطفالنا في أخلاقنا - نحن الأوصياء والمربيين وكل منا يحتضن أملاكه كما يحتضن الطفل لعبته ولا يطيق أن تمسها يد منتفع.

و فينا البخيل والشره، والأكول والطماع، ومن يسيل لعابه على المليم.

و الطفل يخطف والكبير يسرق.

و الطفل يضرب والكبير يقتل.

و الطفل يمد يده بالإيذاء والكبير يمد عصاه وسكينه.

و الطفل يرمي بحصاة والكبير العظيم يرمي بقنبلة ذرية.

ألا يحق لي بعد ذلك أن أبكي على هذا العالم من العيال الذين ظنوا أنفسهم كبارا؟!

***

كيف تكسب ألف جنيه فورا

اطمئن..

لن أقول لك اقطع الكوبون في أسفل الصفحة وأرسله مع اسمك وعنوانك مع الأجوبة على الاستفتاء كذا.. ولن أحول الموضوع إلى مسابقة تنفق عليها((سيجال)) أو إعلان توزع جوائزه ((رابسو)).

إنما الموضوع جد.

و سوف أفكر معك بجد. ولنبدأ من أمثلة بسيطة.

و في مثل هذا البرد الشديد لا بد أنك فكرت كيف تتدفأ.

و كذلك فكر الإنسان البدائي عندما داهمته أول موجة برد.. وأعمل ذهنه.. وظل يخبط جبهته بيده ويخبط حجرا بحجر وهو شارد.. واندلعت أول شرارة مصادفة من صك الحجر بالحجر.. وحملق الإنسان المذهول في هذه الظاهرة العجيبة.

و لا شك أنه قد اتخذها بعد ذلك لعبة.. حتى أمسكت الشرارة ذات مساء بعود قش جاف وأضرمته نارا.

و تعلم الإنسان منذ ذلك اليوم كيف يحتطب ويجمع الأخشاب، ويشعل النار ويرقص حولها، ويطهو طعامه ويتدفأ.

ثم اكتشف الفحم.

ثم اكتشف البترول.

ثم اكتشف الغاز الطبيعي القابل للاشتعال.

ثم اكتشف الكهرباء.

ثم اكتشف جهاز التكييف.

و كانت أول ثروة طبيعية للإنسان هي يديه و حيلته.

و عن طريق يديه صنع الأدوات.

و بهذه الأدوات قطع الأشجار وحفر الأرض لاستخراج الفحم.

و كان هناك رجل أكثر ذكاء اكتفى بالجلوس بعيدا لا يعمل يديه في شيء وإنما يأخذ مما جمعه العامل ليبيعه.

ثم ظهر أناس أكثر ذكاء لا يعملون أي شيء سوى أن يقوموا بالوساطة بين الأيدي التي تأخذ وتعطي، ويقبضون في مقابل هذه العملية سمسرة تفوق ما يربحه العامل والبائع.

ثم تعقدت أدوات الإنتاج لتتحول إلى مصانع.

و أصبح المصنع هو قلعة الحاوي التي يوضع تحتها التراب فيخرج منها حديدا وأسياخا وصفائح صلب وسيارات وأجهزة تكييف.. مع ربح هائل يدخل معظمه في جيب صاحب المصنع.

ثم ظهرت مؤسسات بهلوانية اسمها الشركات وظيفتها الإعلان والتسويق والترويج والبيع والتجارة في تلك المنتجات.. تقوم بالوساطة بين المصنع وبين المشتري وتكسب من الإثنين أكثر مما يكسبه الصانع وصاحب المصنع.

و لأن المال السائل في قدرته أن يشتري المصنع ويؤسس الشركة فقد أصبح رأس المال بذاته قادرا على التوالد والتكاثر بدون أن يعمل صاحبه في شيء.. فقط ما عليه إلا أن يودعه في بنك فيلد له نسبة مئوية كل سنة.. فإذا أقام به مصنعا أو أسس به شركة فسوف يحصل على نسبة أكبر من الربح.. وإذا وقف يقامر به في البورصة على اضطراب الأسعار نزولا وصعودا مع اختلاف إلى العرض والطلب ومع أزمات السياسة وحمى الفقر والغنى

التي تتداول الناس والشعوب فسوف يكسب أكثر من الكل لأنه سوف يتاجر في الفلوس ذاتها، وسوف يتاجر في التجارة وفي سعر الذهب والورق الذي لا يستقر على حال.

و الأغنياء والأذكياء الجدد الذين اشتروا بأموالهم كل شيء مما كانوا يحلمون به من أرض ودور وقصور ومتاع لم يقفوا عند حد، لأن ثرواتهم لم تكن تقف عند حد، فبدأوا يشترون الذمم ثم يشترون الأحزاب والحكومات ثم يحركون السلطة لصالحهم فيدفعونها إلى تجييش الجيوش وغزو البلاد المتخلفة واستعمارها لتكون أسواقا جديدة، ومصادر جديدة للثروة والقوة.

و آخر صورة محزنة من هذا الذكاء البشري هو ما نراه الآن، فالأقوياء الأغنياء لم يعودوا يفكرون حتى في أن يحاربوا.. وإنما اكتفت الدول الكبرى بأن تصنع السلاح ثم تبيعه للأمم الفقيرة الصغيرة لتقتل به بعضها بعضا.. وتطوع الأذكياء بإشعال الفتن في هذه الدول الصغيرة البائسة. كلما نامت الخلافات أوقدوا نارها.. بين الهندوس والمسلمين في الهند، وبين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا، وبين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا، لتظل الحرب مشتعلة تأكل السلاح وتبقي على الصغار صغارا وتجعل الكبار أكبر والأغنياء أغنى.

و برغم دعاوي الاشتراكية ظل القانون القديم سائدا.. إن من عنده يربح فيزداد.. ومن ليس عنده يخسر أكثر فأكثر.. الكبير يزداد كبرا والصغير يزداد صغرا.

و العلم بتطوره السريع يهدد المتخلفين الذين يزدادون تخلفا في معاركهم مع الكبار.. يهددهم بأن يتحولوا إلى قرود، بالنسبة إلى الأدوات العلمية التي تتطور في أيدي الكبار فتحولهم إلى عمالقة وأنصاف أرباب.

و الدول الكبرى لم تعد تتصرف بحكم المبادئ والأيديولوجيات.. وإنما أصبحت تتصرف بحكم كونها كبرى ويجب أن تظل كبرى وتصير أكبر في مواجهة دول أخرى ((كبرى)) تحاول أن تكون أكبر وفي حلبة الصراع بين الكبار.. تدوس الأقدام الصغار..

وتدوس مصالحهم، وتدوس حياتهم.

هل فهمت شيئا من هذه القصة.

لقد فهمت شيئا من السياسة.

و فهمت أن الإنسان كان يكسب دائما باستخدام يديه وعقله وحيلته. وأن هناك طريقتين للكسب، أن تكسب بالحيلة الشريفة عن طريق عمل يديك وعمل عقلك، وأن تكسب بالحيلة الخبيثة عن طريق أيدي الآخرين وعقولهم، وأن في الإمكان أن تكسب ألف جنيه بشرف.. وذلك بأن تقدم عملا أو كشفا أو اختراعا أو إمتاعا أو نفعا للناس يساوي تلك القيمة.. ولا عذر لك.. ولا يصح لك أن تتعلل بأن حظك من العلم قليل. فقد بدأ أديسون المخترع العظيم حياته صبيا يبيع الجرائد، ثم اخترع لنا المصباح الكهربائي والجراموفون.. كما بدأ عالم الكهرباء العظيم مايكل فاراداي حياته صبيا يعمل في محل تجليد كتب، ثم اكتشف قوانين الكهرباء التي اخترعت على أساسها جميع أجهزة اللاسلكي فيما بعد.

و اللاعب البرازيلي بيليه جمع ثروة هائلة من مجرد إتقان الجري.. وأي اجتهاد في أي شيء ولو كان اجتهادا في اللعب.. لابد أن يؤتي ثمرته.

اعمل بجد في أي شيء.

و إذا لعبت فالعب بجد.

و ابدأ فورا من الآن.

لا تبرر كسلك بأن العلم في المدارس والجامعات وأنت محروم من المدارس والجامعات.. فالعلم في الكتب والمكتبات.. وهو متاح على الأرصفة أرخص من علب السجائر.

و هو في دور الكتب مجانا.

و القدرة على الابتكار موهبة أودعها الله في كل عقل.. كل ما عليك أن تبدأ.

غادر مقعدك المألوف على المقهى فورا.. واكدح بذهنك ويديك في شيء.. ولا تظن أن ((الألف جنيه)) قد وقعت على رأس أي واحد بمجرد التمني وبدون أن يجتهد في كسبها.

و تأكد أن تسخيرك لذكائك أسهل من تسخيرك للجن.

و ثق بأن مفعول ذكائك أقوى من مفعول السحر.

و إذا شككت في كلامي فاقرأ المقال من جديد لتعلم كيف قامت دول كبرى.. وكيف صنع المصنع ما لا تصنعه قبعة الحاوي.. وكيف صعد الإنسان للقمر دون بساط سليمان.. وكيف أنك مهدد بأن تتحول إلى قرد إذا ظللت جالسا في جلستك اليومية على المقهى لا تجهد ذهنك في شيء.. والعالم من حولك في سباق علمي رهيب يفض أسرار الذرة، ويسخر القوى النووية في صناعة الأعاجيب.. فيزداد الأقوياء قوة، ويزداد الضعفاء ضعفا.. إلى أن يصبح المتخلفون في مكانة القرود أو أقل من القرود.

هل تشعر بأني خدعتك.

بل لو كنت قلت غير هذا لكنت خدعتك.

***

هل كانت مصادفة

يحلو دائما للمفكر المادي أن يقول أن الإنسان خلق مصادفة.. من أخلاط المواد المتخمرة في طين المستنقعات منذ خمسة آلاف مليون سنة حدث بالمصادفة تفاعل أدى إلى نشأة الخلية.. وهو لا يقول لنا كيف حدث هذا التفاعل، ولا كيف حولت المصادفة الطين إلى خلية حية.. وإنما هو يقول إن هذا الأمر لابد قد حدث، وإننا لا يجب أن ندهش، فالخمسة آلاف مليون سنة زمن طويل جدا.. ولو أن قردا جلس يدق على آلة كاتبة ويلهو بأصابعه مدى خمسة آلاف مليون سنة من الزمان فإنه لابد سيحدث بالمصادفة أن يكتب بيتا لشكسبير.

حسنا.. صدقنا وآمنا أنه بمصادفة فردية لا إحكام فيها ولا تدبير تحول الطين إلى خلية حية.. وماذا بعد؟..

إن المفكر المادي يعود فيهرش مخه ليقول إنه بمصادفة أخرى تطور الكائن الوحيد الخلية إلى كائن متعدد الخلايا.

ثم يعود فيهرش رأسه ليقول إنه بخبطة عشوائية ثالثة تفرع طريق الحياة إلى سكتين.. سكة الحياة النباتية التي اختارت النمو الثابت في الأرض.. وسكة الحياة الحيوانية التي اختارت الحركة وراحت تقتحم البر والبحر والجو بنسلها المغامر الطموح.

ثم يعود فيهرش قفاه ويخرج بمجموعة مصادفات أخرى ليحول بها الكلاب إلى حمير، إلى خيول، إلى زراف إلى نسانيس، إلى قرود.

و هي مصادفات يخجل مؤلف سينمائي درجة ثالثة يكتب وهو مخمور فيلما لبنانيا ساقطا – أن يكتبها في روايته.

و لكن المفكر المادي الذي لا يؤمن بالخجل، والذي يعتقد أنه حفيد بالمصادفة لجد حمار يعود فيخلق سيلا من المصادفات يحول بها الشمبانزي إلى غوريلا، والغوريلا إلى

إنسان.. ثم يفرك يديه ويتنفس الصعداء فقد انتهى من المشكلة وأثبت أن الإنسان خلق بالمصادفة ويموت بالمصادفة.

و لا أفهم لماذا لا يتركنا المفكرون الماديون نعيش اعتباطاً وعلى مزاجنا مادمنا قد جئنا بالمصادفة ونموت بالمصادفة ومادامت الحياة من بدئها إلى نهايتها خبط عشواء في خبط عشواء.. وليس بعدها إلا التراب.

لماذا يثيرون هذه الحروب الدموية ويضربون الناس بعضهم ببعض في معركة مذاهب لا نهاية لها؟

لماذا هذا العنف والقهر والجبر والسحق؟

و من أجل ماذا ولا حق هناك.. إنما هي مهزلة من المصادفات جاءت بنا إلى الدنيا بدون حكمة ثم هي تقضي علينا بدون معنى.. ثم يكون الصمت والتراب والعدم بلا بعث وبلا حساب.. هكذا يقولون.. وهكذا يعتقدون.. فلماذا هذا الجنون ولماذا قتل الناس وذبح الناس.. إذا كانت هكذا عقيدتهم؟

و لن أناقش حكاية المصادفات الساذجة، فهي لا تحتاج إلى مناقشة.

و يكفي أن ننظر إلى جناح فراش بنسجه وألوانه ونقوشه لنعرف أننا أمام فنان مبدع وريشة ملهمة لم تترك بقعة واحدة ولا خطا واحد للمصادفة.. وإنما هي سيمفونية رائعة من الخطوط والألوان.

بعوضة تافهة تضع بيضها على الماء فنكتشف حينما ننظر أن كل بيضة لها كيسان للطفو..

من علم البعوضة قوانين أرشميدس لتصنع هذه الأكياس الهوائية لتعويم بيضها على الماء؟

أشجار الصحارى وهي تنثر بذورها.. فإذا لكل بذرة أجنحة..

من علم الأشجار قوانين الحمل الهوائي؟

و كيف أدركت تلك الأشجار التي بلا عقل أن على بذورها أن تقطع مئات وآلاف الأميال في الصحارى بحثا عن ماء فزودتها بهذه الأجنحة؟

من علم الكتكوت أن يدق بمنقاره على أضعف مكان في البيضة ليخرج؟

من علم الحشرات فنون التنكر فراحت تتلون بألوان بيئاتها لتختفي عن الأنظار؟

من علم النحل قوانين العمارة لتبني هذه البيوت السداسية الدقيقة الجميلة من الشمع بدون آلات حاسبة وبدون مسطرة؟

من يهدي الطيور في رحلة الهجرة السنوية من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر بدون بوصلة وبدون رادار.. عائدة إلى أوكارها؟

و مثلها الأسماك التي تهاجر عبر المحيطات والبحار لتضع بيضها.

لماذا لا نعترف ببساطة وبدون مكابرة أن هناك خالقا. وأنه هو الذي هدى رحلة المسار من الخلية إلى الإنسان. وأنه خلق كل شيء لحكمة وخلق الإنسان لهدف!

لماذا لا نعود إلى البداهة والفطرة السوية السليمة التي ترى الإبداع في كل شيء من الذرة إلى ورق الشجر إلى جناح الفراش، إلى الشموس والمجرات في السماء.. فنصل إلى النتيجة البسيطة.. إن مثل هذا الإبداع ومثل هذا الخلق لا يمكن أن يكون سدى.. والإنسان لا يمكن أن يخلق عبثا ليموت عبثا.. وإنما للقصة بقية.. وللموت ما بعده..

أم أن الجد الحمار قد خلف آثاره التي لا علاج لها في أحفاده المفكرين الماديين الذين يقتتلون على الهباء ويدورون في الخواء.

***

مخير أم مسير

يسألني القراء دائما في استغراب.. كيف وصلت إلى قرارك الذي تردده في كل كتبك ومقالاتك بأن الإنسان مخير لا مسير.

كيف يكون الإنسان مخيرا وهو محكوم عليه بالميلاد والموت والاسم والأسرة والبيئة، ولا حول له ولا قوة، ولا اختيار في هذه الأشياء التي تشكل له شخصيته وتصرفاته.

و القراء يقعون في خطأ أولي منذ البداية حينما يقيمون علاقة حتمية بين البيئة والسلوك.. وبين الأسرة وتقاليدها وبين الشخصية، وهو تفكير خاطئ، فلا توجد حتمية في الأمور الإنسانية.. وإنما يوجد - على الأكثر - ترجيح واحتمال وهذا هو الفرق بين الإنسان والجماد وهذا هو الفرق بين الإنسان وبرادة الحديد.

برادة الحديد تطاوع خطوط المجال المغناطيسي في حتمية وجبرية وتراص في خطوط المجال حتما حينما نرشها حول المغناطيس.

أما الإنسان فإن علاقته بظروفه لا تزيد على كونها احتمالا أو ترجيحا.

الابن الذي ينشأ في عائلة محافظة محتمل أن ينشأ محافظا هو الآخر مجرد احتمال.. وكثيرا ما يحدث العكس، فنرى هذا الابن وقد انقلب متمردا ثائرا على التقاليد، محطما لها..

و هذا هو الفرق بين المسائل الآلية الميكانيكية والمسائل الإنسانية.. ونفس الكلام يقال في البيئة..

البيئة تشكل الإنسان.. ولكن الإنسان أيضا يشكل البيئة.

و نظرة سريعة في المجتمع العصري حولنا سوف ترينا كيف أخضع الإنسان مشاكل الحر والبرد والمسافات بعقله وعلمه واستطاع أن يسودها فهو يكيف الهواء بالمكيفات،

وهو يهزم المسافات بالمواصلات السريعة والبرق والهاتف.

الإنسان ليس كتلة هلامية سلبية تشكلها حتميات البيئة.. ولكنه إرادة صلبة في ذاتها لها حريتها في توجيه الأحداث.

و هذا هو الإنسان الذي ولد طفلا تحكمه أسرته وبيئته ومقتضيات اسمه وتقاليده.. ها هو ذا يهاجر ويغير اسمه وبيئته وأسرته وينتقل إلى مجتمع جديد فيصنع انقلابا في هذا المجتمع الجديد ويغيره من أساسه.

و ها هو ذا يموت فيترك كتابا.. فإذا بالكتاب يغير التاريخ.

و صحيح أن الإنسان قليل الحيلة في الطريقة التي يولد بها وفي الطريقة التي يموت بها.. ولكنه بين ميلاده وموته يصنع حضارة.. أعطاه الله القدرة على أن يبني ويهدم ويحرر ويتحرر ويفكر ويبتكر ويخترع ويفجر ويعمر ويدمر.. وسلمه مقاليد الخير والشر وحرية الاختيار.

و حواجز البيئة وضغوط الظروف لا تقوم دليلا على عدم الحرية بل هي على العكس دليل على وجود هذه الحرية.. فلا معنى للحرية في عالم بلا عقبات.. وفي مثل هذا العالم الذي بلا عقبات لا يسمى الإنسان حرا، إذ لا توجد لرغباته مقاومات يشعر بحريته من خلال التغلب عليها.

و الحرية لا تعبر عن نفسها إلا من خلال العقبات التي تتغلب عليها.. فهي تكشف عن نفسها بصورة جدلية من خلال الفعل ومقاومة الفعل.

و لهذا كانت الضغوط والعوائق والعقبات من أدلة الحرية وليس العكس.

و الفيلسوف الغزالي يحل المشكلة بأن يقول إن الله حر مخير مطلق التخيير والمادة الجامدة مسيرة منتهى التسيير.. والإنسان في منزلة بين المنزلتين.. أي أنه مخير مسير في ذات الوقت.. مخير بمقدار مسير بمقدار.

و توضيحا لكلامه أقول إن الإنسان حر مطلق الحرية في منطقة ضميره.. في منطقة السريرة والنية.. فأنت تستطيع أن تجبر خادمك على أن يهتف باسمك أو يقبل يدك، ولكنك لا تستطيع أن تجبره على أن يحبك.. فمنطقة الحب والكراهية وهي منطقة السريرة منطقة حرة حررها الله من كل القيود ورفع عنها الحصار ووضع جنده خارجها..

لا يدخل الشيطان قلبك إلا إذا دعوته أنت وفتحت له الباب.

و قد أراد الله هذه النية حرة لأنها مناط المسئولية والمحاسبة.

أما منطقة الفعل فهي المنطقة التي يتم فيها التدخل الإلهي عن طريق الظروف والأسباب والملابسات ليجعل الله أمرا ما ميسرا أو معسرا حسب نية صاحبه.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥/ ١٠).

يمهد الله أسباب الشر للأشرار.. ويمهد أسباب الخير للأخيار.. ليخرج كل منا ما يكتمه ويفصح عن سريرته ونيته ويتلبس بفعله.

و بهذا لا يكون التسيير الإلهي منافيا أو مناقضا للتخيير، فالله يستدرج الإنسان بالأسباب حتى يخرج ما يكتمه ويفصح عن نيته ودخيلته ويتلبس باختياره.

الله بإرادته يفضح إرادتنا واختيارنا ويكشفنا أمام أنفسنا.

و من ثم يكون الإنسان في كتاب الله مخيرا مسيرا في ذات الوقت.. دون تناقض.. فالله يريد لنا ويقدر لنا حتى نكتب على أنفسنا ما نريده لأنفسنا وما نخفيه في قلوبنا وما نختاره في أعمق الأعماق دون جبر أو إكراه، وإنما استدراجا من خلال الأسباب والظروف والملابسات.

و في إمكان الواحد منا أن يبلغ ذروة الحرية بأن تكون إرادته هي إرادة الله واختياره هو اختيار الله وعمله هو أمر الله وشريعته.. بأن يكون العبد الرباني الذي حياته هي

الناموس الإلهي، فيعبد الله حبا واختيارا لا تكليفا.. إنه الحب الذي قال عنه المسيح:

((لو كان في قلبك ذرة ايمان وقلت للجبل انتقل من مكانك لانتقل من مكانه)).

كما يحدث أن نعطي من ذات نفوسنا لمن نحب كذلك يعطي الله من ذاته لأحبابه، فيحقق لهم ما يشاءون فيكونون الأحرار حقا.

***

لغز الرقم سبعة

اليهود يقدسون اليوم السابع من الأسبوع (السبت) ويجعلون منه يوم راحة.. والسنة السابعة ويسمونها سنة السبت.. وكذلك ٧ * ٧ أي العام التاسع والأربعون ويسمونه عام العيد.

و تقول لنا التوراة إن الله خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع.

و في الإنجيل يقول لنا يوحنا اللاهوتي في سفر الرؤيا إن الله يوم القيامة يفتح كتاب الأقدار، ويفض الأختام السبعة، فينفخ سبعة من الملائكة في سبعة أبواق وتحدث سبع كوارث تنتهي بها الدنيا.

و يحدثنا القرآن عن سبع سماوات، وسبع أبواب للجحيم، وسبع ليال عجاف مرت بها مصر أيام نبوة يوسف، وسبع ليال سخرت فيها الرياح المهلكة على قوم عاد، وسبعين رجلا جمعهم موسى لميقاته مع الله. وسلسلة في جهنم طولها سبعون ذراعا، ويقول للنبي الكريم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾(الحجر:٨٧).

و يقول إن الله خلق العالم في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع.

فإذا وضعنا الكتب المقدسة جانبا وجئنا إلى العلم فإنا نجده يقول لنا ما هو أعجب. فالنور يتزلف من سبعة ألوان هي ألوان الطيف، من الأحمر إلى البنفسجي. ثم يأتي بعد ذلك سبعة ألوان غير منظورة من تحت الأحمر إلى فوق البنفسجي، وهكذا في متتاليات سباعية.

و الموسيقى يتزلف سلمها من سبع نغمات: صول، لا، سي، دو، ري، مي، فا.. ثم تأتي النغمة الثامنة فتكون جوابا للأولى، ويعود فيرتفع بنا السلم سبع نغمات أخرى، وهكذا سبعات سبعات.

و في ذرة الأيدروجين داخل قلب الشمس يقفز الإلكترون خارجا من الذرة في سبع قفزات لتكون له سبع مدارات تقابل سبعة مستويات للطاقة، في كل مستوى يبث

حزمة من الطاقة، هي طيف من أطياف الضوء السبعة.

والجنين في بطن أمه لا يكتمل نموه إلا في الشهر السابع، وإذا ولد قبل ذلك لا يعيش.

و قد توارثنا الاحتفال ((بسبوع)) المولود.

ثم نحن قسمنا أيامنا إلى أسابيع، نجد ذلك في جميع الأمم دون أن يكون بينها اتفاق.

و نحن نجد رقم سبعة رقما فريدا لا يقبل القسمة، وليس له جذر تربيعي، ولا يقبل التحليل الحسابي. فهو في ذاته وحدة حسابية.

و نجده مستعملا في جميع طلاسم السحر والأحجبة والتمائم، وفي التسابيح، وفي قراءة الأوراد.

و نجد للإنسان سبع حواس. حاسة السمع، والبصر، والشم، واللمس، والذوق، وحاسة إدراك الزمن، وحاسة إدراك الوضع في المكان.

و نجد فقرات الرقبه سبعا. هي كذلك في القنفذ وهي كذلك في الزرافة، وهي كذلك في الإنسان والحوت والخفاش، وبالرغم من تفاوت طول الرقبة بين أقصى الطول في الزرافة وأدنى القصر في القنفذ.

هل كل هذه مصادفات.

وإذا صحت مصادفة واحدة فكيف يجوز أن تجتمع كل هذه المصادفات على نفس الرقم.

يجب أن نعترف أنه رقم له دلالة. وأنه رقم مهم وجوهري في بناء هيكل الكون وفي تكوين الإنسان.

و أنه لغز يثير التفكير والتأمل.

الواقع الكذاب

ما نراه في الواقع ليس دائما هو الحقيقة..

حتى ما نراه رأي العين ونلمسه لمس اليد..

فنحن نرى الشمس بأعيننا تدور كل يوم حول الأرض، ومع ذلك فالحقيقة أن العكس هو الصحيح، والأرض هي التي تدور حول الشمس.

و نحن نرى القمر في السماء أكبر الكواكب حجما، مع أنه أصغرها حجما.

و نحن نلمس الحديد فنشعر بأنه صلب متدامج، مع أنه في الحقيقة عبارة عن ذرات منثورة في فراغ مخلخل، وبين الذرة والذرة كما بين نجوم السماء بعدا.. وما يخيل لنا باللمس أنه صلابة وتدامج هو في الحقيقة قوى الجذب المغناطيسي الكهربائي بين الذرة والذرة.. نحن نلمس القوانين بأصابعنا وليس الحديد.

و نحن ننظر إلى السماء على أنها فوق، والأرض على أنها تحت، مع أنه لا يوجد فوق ولا تحت.. والسماء تحيط بالأرض من كل جوانبها.

و الهرم بالنسبة لنا شيء لا يمكن اختراقه، مع أنه بالنسبة للأشعة الكونية شفاف كلوح الزجاج، ترى من خلاله وتنفذ من خلاله.

و صقيع القطبين الذي نظن أنه غاية في البرودة هو بالنسبة لبرودة أعماق الفضاء جحيم ملتهب.

و في الحقائق الإنسانية تكذب علينا العين واللسان والأذن أكثر وأكثر.. فالقبلة التي تصورناها في البداية مشروع حب نكتشف في النهاية أنها كانت مشروع سرقة.

و جريمة القتل التي أحس الجميع بأنها ذروة الكراهية يكتشف الجميع أنها ذروة الحب.

و ما قد يبدو للزوج أنه خيانة من زوجته لفرط إحساسها بجمالها قد يكون الدافع الحقيقي له هو إحساس الزوجة بقبحها وشعورها بالنقص، تحاول الخلاص منه باستدراج إعجاب الرجال، والانتقال من خيانة إلى أخرى.

و ما تكتب عنه الجرائد بالإجماع على أنه بطولة قد يعلم البطل نفسه أنه كان انتحارا.

و في الحقائق الاجتماعية تتعقد الأمور أكثر، ويغرق الحق في شبكة من التزييف تشترك فيها كل الإرادات، ويصبح الحكم على الأمور بظاهرها سذاجة لا حد لها.

و في الحقائق التاريخية يكتب المؤرخون في كل عصر ومن ورائهم السلطة، وتكتب أقلامهم ما يريد الأقوياء أن يقولوا.

و ما أصعب الوصول إلى الحقيقة..

إن الوصول إلى المريخ أسهل من الوصول إلى حقيقة أكيدة عن حياة وردة تتفتح كل يوم عند نافذتك.. بل إن الوصول إلى أبعد نجم في متاهات الفضاء أسهل من الوصول إلى حقيقة ما يهمس في قلب امرأة على بعد شبر منك.

بل إن عقولنا تزين علينا حتى عواطفنا نفسها، فنظن أن حب المجد يدفعنا والحقيقة أنه الغرور وحب الذات.. ونظن أن العدالة هي التي تدفعنا إلى القسوة في حين أن الذي يدفعنا هو الحسد والحقد.

من الذي يستطيع أن يقول.. لقد أدركت الحقيقة؟

من الذي يجرؤ أن يدعي أنه عرف نفسه؟

ليس من باب التواضع أن نقول.. الله أعلم.

و إنما هي الحقيقة الوحيدة الأكيدة في الدنيا.. إننا نجهل كل الجهل حتى ما يجري تحت أسماعنا وأبصارنا.

و برغم جهلنا يتعصب كل فريق لرأي.. وقد تصور كل واحد أنه امتلك الحق، فراح ينصب المشانق والمحارق للآخرين.

و لو أدركنا جهلنا وقدرنا لانفتح باب الرحمة والحب في قلوبنا، ولأصبحت الحياة على الأرض جديرة بأن نحياها.

متى نعرف أنا لا نعرف؟!

***

أنت إمبراطور

لا تصدقني إذا قلت لك إنك تعيش حياة أكثر بذخا من حياة كسرى أنو شروان.. وإنك أكثر ترفا من إمبراطور فارس. وقيصر الرومان. وفرعون مصر.. ولكنها الحقيقة.

إن أقصى ما استطاع فرعون مصر أن يقتنيه من وسائل النقل كان عربة كارو يجرها حصان..

و أنت عندك عربة خاصة، وتستطيع أن تركب قطارا، وتحجز مقعدا في طائرة!

و إمبراطور فارس كان يضيء قصره بالشموع وقناديل الزيت.. وأنت تضيء بيتك بالكهرباء!

و قيصر الرومان كان يشرب من السقا.. ويحمل إليه الماء في القرب.

و أنت تشرب مياها مرشحة من حنفيات ويجري إليك الماء في أنابيب!

و هارون الرشيد كانت عنده فرقة موسيقية تعزف له في أوقات لهوه وفراغه.

و أنت عندك مفاتيح الراديو توصلك إلى آلاف الفرق الموسيقية، وتحمل إلى أذنك المبهج والمطرب والممتع من كل صوت وكل فن!

و الإمبراطور غليوم كان عنده أراجوز..

و أنت عندك تليفزيون يسليك بمليون أراجوز.

و عندك السينما سكوب والسيزاما!

و لويس الرابع عشر كان عنده طباخ يقدم أفخر أصناف المطبخ الفرنسي..

و أنت تحت بيتك مطعم فرنسي، ومطعم صيني، ومطعم ألماني، ومطعم ياباني، ومحل محشي، ومحل كشري، ومسمط، ومصنع مخللات ومعلبات، ومربات وحلويات!

و قارون أغنى أغنياء العالم يقول لنا التاريخ إن كل ثروته لم تكن تزيد على مائتين من الجنيهات بالعملة النحاسية.. وهو مبلغ تستطيع أن تكسبه الآن في شهر.

و جواري الخليفة تجدهن الآن معروضات في بيجال بباريس بعشرة فرنكات للواحدة.. شقر وسمر وسود وبيض من كل لون اوكازيون.

و مراوح ريش النعام التي كان يروح بها العبيد على وجه الخليفة في قيظ الصيف ولهيب آب، عندك الآن مكانها مكيفات هواء تحول بيتك إلى جنة بلمسة سحرية لزر كهربائي!

أنت إمبراطور.

و كل هؤلاء الأباطرة جرابيع وهلافيت بالنسبة لك..

و لكن يبدو أننا أباطرة أغبياء جدا.. ولهذا فنحن تعساء جدا برغم النعم التي نمرح فيها.

فمن عنده عربة لا يستمتع بها، وإنما ينظر في حسد لمن عنده عربتان.. ومن عنده عربتان يبكي على حاله، لأن جاره يمتلك طائرة.. ومن عنده طائرة يكاد يموت من الحقد والغيرة لأن أوناسيس عنده مطار.. ومن عنده زوجة جميلة يتركها وينظر إلى زوجة جاره..

و في النهاية يسرق بعضنا بعضا، ويقتل بعضنا بعضا حقدا وحسدا.

ثم نلقي بقنبلة ذرية على كل هذا الرخاء.. ونشعل النابالم في بيوتنا.. ثم نصرخ بأنه لا توجد عدالة اجتماعية.. ويحطم الطلبة الجامعات ويحطم العمال المصانع..

و الحقد — وليس العدالة — هو الدافع الحقيقي وراء كل الحروب.

و مهما تحقق الرخاء للأفراد فسوف يقتل بعضهم بعضا، لأن كل واحد لن ينظر إلى ما في يده، وإنما إلى ما في يد غيره، ولن يتساوى الناس أبدا.

فإذا ارتفع راتبك ضعفين فسوف تنظر إلى من ارتفع أجره ثلاثة أضعاف، وسوف تثور وتحتج، وتنفق راتبك في شراء مسدسات.

لقد أصبحنا أباطرة.. هذا صحيح.. ولكننا مازلنا نفكر بغرائز حيوانات.

تقدمنا كمدينة وتأخرنا كحضارة.. ارتقى الإنسان في معيشته.. وتخلف في محبته..

أنت إمبراطور.. هذا صحيح.. ولكنك أتعس إمبراطور..

و سوف تقتل نفسك وتترك بطاقة مضحكة تقول فيها:

انتحرت بسبب الفقر.. لم أستطع أن أعيش إمبراطورا في عالم كله من ((السوبر أباطرة)).

***

قانون عدم المساواة

الدنيا ليس فيها مساواة.

لا مساواة في أي شيء.

كل وردة لها رتبة مختلفة من حيث الشكل والرائحة والجمال.

لا تتساوى وردتان.

و في نفس عائلة القطن نجد السكلاريدس.. وجيزة ٧.. وجودفير.. وفولي جود فير.. وطويل التيلة وقصير التيلة.. لا يتساوى أخوان في العائلة الواحدة.

و في الفاكهة نجد في عائلة واحدة كالبلح مثلا عشرات الرتب والدرجات والأصناف.. الزغلول والسماني والحياني والأسيوطي والرشيدي وبلح ((عيشا)).. وكل صنف له طعم ونكهة ومذاق.

و علماء الحشرات يصنفون لنا من الحشرة الواحدة كالنمل أكثر من ألف نوع وكل أسرة من أسر النمل يقولون لنا إن فيها أكثر من مائة مصنف ومصنف.

و في الإنسان يزداد التفاوت والتفاضل.. فنجد الذكي والغبي، والأحمر والأسود والأصفر والأبيض والأشقر، والطويل والقصير والسمين، والأصلع والكثيف الشعر.. ونجد من يولد بحنجرة من ذهب ومن يولد بحنجرة من خشب.. ومن يولد جميلا ومن يولد قبيحا..

بل إن كل إنسان يحمل بصمة إصبع مختلفة.

و كل إنسان هو رتبة في ذاته.

كل إنسان يتسلم لحظة ميلاده بطاقة تموين وإذن صرف وشيك، وثروة من المواهب والتسهيلات الخاصة به.

و أكثر من هذا يولد كل مولود بعدد من خلايا المخ محدودة غير قابلة للتجدد او التكاثر، وما يموت من هذه الخلايا لا يستحدث.. ولكل واحد منا عدد من هذه الخلايا هي كل ثروته.. وكل واحد يوهب عددا من هذه الخلايا مختلفا عن الآخر.

معنى هذا أن الدنيا كلها تقوم على قانون التفاضل والتفاوت.. وأن عدم المساواة هو القاعدة في كل شيء.. في النبات والحيوان والإنسان والجماد.. حتى الجماد كل مادة فيه لها بلورتها الخاصة، ولها وزنها الذري، ووزنها الجزئي، ولها هندستها الخاصة في توزيع الإلكترونات وعددها.

لا مساواة على الإطلاق.

هكذا أراد خالق الكون لخلائقه.

هو أراد – لحكمة يعلمها – أن يخلقنا درجات.

و لعله خلق فينا القوي والضعيف ليختبرنا وليظهرنا على نفوسنا.

هل يأكل القوي الضعيف أو يحنو عليه ويعطف عليه ويساعده؟.

هل يدرك القوي أن قوته من الخالق، وانها هبة بأجل، وأن مصيرها الزوال؟ لو أدرك هذا فإنه سيكون المؤمن الذي يوظف قوته لنجدة الضعيف، لأنه يعلم أنه سيصبح يوما ما أضعف منه.

أم أنه سيخيل إليه أن القوة قوته هو، والعنفوان عنفوانه هو، ويمضي يضرب باليمين وبالشمال.

لو فعل هذا فهو الملحد المنكر الذي لا يتصور وجودا لقوة أعلى منه.

و الواقع أن الفرق بسيط.. فرق شعرة.. بين أن تحس بأنك قوي.. وبين أن تحس أنك وهبت هذه القوة.. وأن قوتك عطية ومنحة.

و لكن هذا الفرق البسيط هو فرق هائل بين عقليتين وبين سلوكين.. وهـو مفـرق الطريق بين الإيمان والإلحاد.

و يبدو أن الدنيا هي الفرصة التي أتاحها الخالق لمخلوقاته لتختار طريقها بالفعل.. ليظهرنا على نفوسنا.. ويعرّفنا على حقيقتنا..

و هو يعلم من البداية استحقاق كـل واحـد منـا وقيمتـه.. ولكـن نحـن لا نعلـم.. ويتصور كل منا أنه الكامل الفاضل الذي يستحق الجنة.. ولهذا أراد بالدنيا أن تكـون المحنـة والامتحان الذي يعرف فيه كل واحد نفسه وقيمته.. حتى إذا انتهت الدنيا وانتهى الـزمن.. وأعيد ترتيب النفوس في درجاتها الحقة.. ونزلـت النفـوس منازلهـا ومراتبهـا الـصحيحة.. علمت كل نفس أنه العدل.. وعلم الأسفل أنه الأسفل بالفعل.. وأنه لابث في هـذه المنزلـة السفلى إلى الأبد.. ولا ظلم في ذلك.. لأن هذا مكانه.. وهذا هو الجحيم وهو حق.

كما أن الجنة حق.. وما الجحيم إلا الرتبة السفلى، وما الجنة إلا الرتبة العليـا، وهـذا هو التفاوت والتفاضل الطبيعي بين أعمال تتفاوت وتتفاضل بطبيعتها..

و قانون التفاوت والتفاضل هو قانون الوجود وهو العدالة بعينها.

و إنما الظلم بعينه أن يتساوى غير المتساويين.

و قصارى العدل الأرضي هو أن يساوي بين الفرص والتسهيلات، وأن يمنح كـل فرد حق الدواء والكساء وفرصة التعلم.. ولكنه لا يستطيع ولا يصح لـه أن يـساوي بـين الناس ذواتهم.

و إلى أن تنتهي الدنيا سوف يظل هناك الأعلى والأدنى.

و في العالم الآخر سوف يكون هناك الأعلى والأدنى.

و كل الفرق أن الأرواح في عالم الأبد سوف تنزل منازلها الحقيقية.. على حين يحاول كل إنسان في الدنيا أن يغتصب ما لا يستحق، ويحاول أن يعلو على الآخر غدرا وغيلة.

راعي شرج الملك

من أطرف ما في كتاب الدكتور بول غاليونجي عن طب الفراعنة هذه الفقرة عن الطبيب ((خوي)).

و قد وجد اسمه مدونا على جدران معابد سقارة وأمامه هذه الألقاب: طبيب القصر الملكي، عميد أطباء القصر الملكي.. المسيطر على سم العقرب.. المبجل لدى إله الطب.. المقرب لدى أنونيس.. كبير أطباء الوجهين البحري والقبلي.. راعي الشرج.

كان الطبيب ((خوي)) هو راعي شرج الملك تيتي، وهذا يعني أن البواسير والناسور مشكلة قديمة قدم التاريخ، وأنها كانت من أمراض الملوك، وأنها كانت من الأهمية لدرجة أن يلقب كبار الأطباء بأن الواحد منهم راعي شرج الملك.

لم أكن وحدي إذن الذي أصرخ من آلام البواسير، فقبل ذلك بثلاثة آلاف سنة كان هناك فرعون عظيم يصرخ مثلي من البواسير اسمه تيتي.

كانت هذه الحقيقة التاريخية فيها بعض السلوى لي.. والذين جربوا آلام جراحة البواسير يعرفون قيمة لحظة سلوى في زوبعة العذاب التي تثيرها تلك الجراحة.

وضعت الكتاب جانبي على سرير المستشفى وقد أسعدني أن حالي هو حال الملك تيتي.

و أعطيت ذراعي في لهفة إلى الممرضة لتغرس فيه حقنة المورفين وقد تصورت أني الملك تيتي فعلا.

و ماذا تعني ثلاثة آلاف سنة في عمر الأبدية.

إنها لا شيء.. لا أكثر من ثلاث لحظات.. كل ما تغير في الأمر أن الطبيب ((خوي)) هو الآن المبجل سليل الآلهة الدكتور عبدالله صبيح.. والمكان مستشفى الشبراويشي.. والزمان يناير ٦٩ بعد ساعات من إجراء الجراحة.

و الألم الآن يذكرني بنفسه.

و كل ما فعله المورفين أني أصبحت أحلم بالألم بدلا من معاناته بعينين مفتوحتين.. وقد كان حلما بطول الليل كله.

و في الحلم كنت أرى أني الفرعون تيتي الكافر الذي ألقي في جهنم.

و في نار جهنم اجتمع حولي الزبانية يضعونني على خوازيق من نار..

و السماء فوقي حمراء كنحاس منصهر.

و الزبانية لا يرحمون.

و العذاب سوف يكون بطول الأبد.

و في الحلم نسيت تماما أنها جراحة.

و كان هذا بتأثير المورفين الذي صور لي من الألم المؤقت دراما لا نهائية من العذاب.

و كانت أسعد مفاجأة أن يطلع علي الصبح ويتبخر ضباب المورفين واكتشف أني أتألم من جراح سوف تشفى.

و حمدت الإله الرحيم.

ما أجمل أن يهبنا الله الزمن الذي لا يدوم فيه شيء.

كل شيء يمضي ثم يصبح ذكرى.

أشد الآلام تتحول إلى مقالة طريفة تروى وأحاديث حول فنجان شاي.

أليست حياتنا معجزة.

و أليست معجزة أكبر أن تشفى وتلتئم جراح مفتوحة في مجرى الشرج تتلوث كل لحظة بما يلفظه الجسم من فضلات.. تشفى وتلتئم تلقائيا بدون بنسلين وبدون صبغة

يود.. بالقدرة الإلهية التي وضعها الخالق في الأنسجة.

و من عجب أن الله حشد كل جنده عند مدخل الجسم وعند مخرجه.. عند الفم والحلق واللوزتين تشفى الجراح المفتوحة وتلتئم وهي في مجرى اللعاب الملوث والأنفاس المحملة بالأتربة والجراثيم.. وتقطع اللوزتان فيلتئم مكانهما بلمسة ساحر.

و عند الشرج حيث تخرج الفضلات تموج بالميكروبات القتالة تلتئم الجراح المفتوحة بقدرة القادر الذي سلحنا بأمضى أسلحته.

و لعل هذا هو السبب في الآلام حول منطقة الشرج حيث وضع الخالق أقوى شبكة من الأعصاب ونشر قنوات وأنهارا من الدم والليمف ورصد الملايين من الكرات البيض والخلايا الحارسة التي تلتهم كل ميكروب وافد فلا تبقي عليه.

و بعد هذا يشك شاك في العناية والرحمة.

و يقول مفكر سطحي مثل سارتر إننا قد ألقي بنا في العالم بدون عون، وقذفنا إلى الوجود لنترك بلا عناية وبلا رعاية.

و لو أن سارتر تعلم الطب كما تعلم الأدب ودرس الإنسان كما درس الوجود لعرف حقيقة نفسه ولقال كلاما آخر.

و لهذا تخطر لي أحيانا فكرة إلحاق كلية الآداب بكلية الطب.. فالإنسان والوجود حقيقة واحدة. ولا يمكن إدراك الأول. دون إدراك الآخر. وملامح الروح مكتوبة على الخلايا وليست في كتب أرسطو.

وشفرة العناية الإلهية مكتوبة على أوراق الشجر وعلى مناقير الحمام وبتلات الورد.

الدودة التي يجعلها الله خضراء بلون الغصن الأخضر ليجعلها أقدر على الاختفاء عن عدوها.. والفراشة الملونة بلون الوردة.. والسلحفاة الصفراء بلون الصحراء.

بشرة الزنجي التي تتلون في الشمس الاستوائية فتصبح سوداء كمظلة منصوبة عليه طول الوقت لتقيه لفح الشمس.

و البشرة البيضاء البلورية الشفافة لأهل الشمال حيث تختفي الشمس طول الوقت خلف الضباب، وحيث يشح الضوء لدرجة تجعل الجسد في حاجة إلى كل شعاعة عن أي طريق مثل تلك البشرة الشفافة الزجاجية.

أجسام الحيتان التي صاغتها العناية تلك الصياغات الإنسيابية كغواصات.. وكل سمكة وقد منحتها الطبيعة كيسا يفرغ ويمتلئ بالهواء لتطفو وتغوص كما تريد.

أفواه الحشرات وقد شكلتها العناية على ألف صورة وصورة حسب وظائفها.. الحشرة التي تمتص كالذبابة تشكل فمها على صورة خرطوم. والحشرة التي تلدغ كالبعوضة تشكل فمها على صورة إبرة.. والحشرة التي تقرض كالصرصور زودتها الطبيعة بمناشير ومبارد.

و الدودة التي تتطفل على الأمعاء زودتها الطبيعة بخطاطيف وكلابات حتى لا تقع في تجويف الأمعاء وتجرفها الفضلات.

و كلما تكاثر الأعداء على مخلوق أكثر الخالق من نسله، فدودة الإسكارس تبيض أكثر من مليون بيضة في الشهر، وتنجب أكثر من مليون دودة.

و في متاهات الصحاري حيث يشح الماء وتندر العيون خلق الله للأشجار بذورا مجنحة لتطير مع الرياح في الجهات الأربع وتحط في ألف شبر وشبر من الأرض، وترحل مسافات شاسعة وكأنها بعثات استكشاف تذرع الصحاري.

و الخفاش الأعمى الذي لا يطير إلا في الليل زودته الطبيعة بأمواج ألتراسونيك يستكشف بها طريقه.

و الكتكوت الوليد ترشده الغريزة إلى أضعف مكان في البيضة فينقرها ليخرج إلى الوجود.

و الزنبور يعرف مكان المراكز العصبية عند فريسته فيحقنها بالسم ويشلها وكأنه جراح ماهر درس التشريح.

و النمل الذي قادته فطرته إلى اكتشاف الزراعة وتخزين المحصولات قبل أن يكتشفها الإنسان بملايين السنين.

و حشرة الترميت التي عرفت تكييف الهواء في بيوتها قبل أن يعرف الإنسان الأبواب والشبابيك.

إن كل خطوة تخطوها في الطبيعة حولك تجد فيها أثر الرحمة والعناية والرعاية.

لم يقذف بنا إلى الدنيا لنعاني بلا معين كما يقول سارتر.

إن كل ذرة في الكون تشير بإصبعها إلى رحمة الرحيم.

حتى الألم لم يخلقه الله لنا عبثا.. وإنما هو مؤشر وبوصلة تشير إلى مكان الداء وتلفت النظر إليه.

ألم الجسد يضع يدك على موضع المرض.

و ألم النفس يدفعك للبحث عن نفسك.

و ألم الروح يلهمك ويفتح آفاقك إلى إدراك شامل، فالدنيا ليست كل شيء، ولا يمكن أن تكون كل شيء وفيها كل هذه الآلام والمظالم. وإنما لابد أن يكون وراءها عالم آخر سماوي ترد فيه الحقوق إلى أصحابها، ويجد كل ظالم عقابه.

و بالألم ومغالبته والصبر عليه ومجاهدته تنمو الشخصية وتزداد الإرادة صلابة وإصرا، ويصبح الإنسان شيئا آخر غير الحيوان والنبات.

ما أكثر ما تعلمت على سرير المستشفى.

و شكرا لأيام المرض وآلامه.

التقدم إلى الخلف

حينما اكتشف الرجل الأوروبي البخار والكهرباء، وصنع الصلب والقطارات والطائرات، وأضاء المدن فأحال ظلامها نهاراً امتلأ شعوراً بالسعادة والعظمة.

و حينما وضع قدمه في أفريقيا السوداء نظر إليها نظرة السيد إلى ملايين العبيد المتخلفين المتأخرين، المتبربرين المتوحشين. وشعر بأن عليه واجب الأخذ بيد هؤلاء الحيوانات إلى نور المعرفة والعلم والوصايا العشر.

و بين زنوج عراة حفاة وقف المبشر الأوروبي في ثياب نظيفة يقول لكل واحد:

لا تسرق..

و نظر كل عريان بجواره يتساءل: نسرق ماذا؟

لا أحد يملك حتى خرقة على جسده، والطير يمرح على الشجر لمن يصطاده، والأرض مجاناً لمن يزرعها، والفاكهة دانية لمن يقطفها..

نسرق ماذا ولماذا؟

أسهل على الجمل أن يدخل ثقب إبرة من أن يدخل الغني جنة الله.

و لكن من هو الغني؟

الذي يملك.. الذي عنده نقود أكثر.. الذي عنده سندات وعقارات أكثر.

و لكن ليس بيننا من يملك أكثر ولا من يملك أقل. ولا نعرف ملكية. ولا نعرف نقوداً. وليس بيننا من يملك سندات وعقارات.

هذا عين التأخر والبربرية والوحشية!

سوف يصك لكم الرجل الأوروبي النقود. سوف يجعل بعضكم فقراء وبعضكم

أغنياء. سوف يجعل بعضكم يملك وبعضكم لا يملك. وهكذا تنشأ بينكم الأحقاد فتعرفون معنى الوصايا العشر.

و لكن ما بال الرجل الأوروبي نفسه لا يعمل بالوصايا العشر؟

لماذا يسرق خيرات الغابة ويشحنها في البواخر المتراصة على الشاطئ إلى بلاده؟ لماذا يقتل العبيد بالسخرة في المناجم؟ لماذا يتزوج واحدة ويزني بألف. ولماذا يكذب على نفسه وعلينا وعلى الله؟!

و ظلت الحياة تسير في رتابة بين المتوحشين المتبربرين تحصدهم الأمراض، وتتحالف عليهم الملاريا والحمى الصفراء، والحيات والأفاعي، ورصاص المستعمرين.

و تولى الرجل الأوروبي مهمة قتل نفسه في حربين عالميتين.

و تولى حصاد المدينة التي أقامها. كلما بنى هدم، وكلما أقام حطم.

و لكن الأدوات في يديه ظلت تتقدم من طائرات إلى صواريخ، ومن كهرباء إلى ذرة.

و ها هو ذا اليوم قد امتلأ شعوراً بالثقة، وقد ازداد تأكيداً أنه أصبح السيد بالفعل.

سيد من؟!!

سيد على الطبيعة وعبد لنفسه!

و هو يزداد عبودية لهذه النفس كل يوم.

تستهويه البضائع الاستهلاكية في الفاترينات، وتستعبده الثلاجة والغسالة والعربة البويك، والريكوردر، والترانزيستور.

و سيطرة البضائع الاستهلاكية والترف الشخصي تفرض نفسها على بلد رأسمالي كأمريكا كما تفرض نفسها على بلد اشتراكي كروسيا.

و من أجل مزيد من الترف والبضائع الاستهلاكية لكل فرد، ومن أجل السيطرة والتحكم في الآخرين سوف تقوم حرب ثالثة، فلم تعد المسألة مسألة مذاهب. وإنما حقيقة المسألة أن الإنسان لم يتقدم وإنما تأخر. وهو كل يوم يتأخر.

الأدوات في يديه هي التي تقدمت وتحول هو من صانعها إلى خادمها ثم إلى عبدها.

لكن كل هذه البضائع الاستهلاكية ليست أكثر من لعب أطفال في فاترينة، وكل ما أحرزه الإنسان من تقدم هو تقدم شكلي.

و الإنسان في أثينا، منذ أكثر من ألفي سنة، أيام سقراط وأفلاطون وأرسطو كان أكثر تقدماً. وكان يعرف طريقه الصحيح إلى التقدم بالفعل. كان يبحث كيف يعرف نفسه، وكيف يتخلص من عبوديتها، وكيف يحقق الحرية، وكيف يحقق العدالة، وكيف يصل إلى معرفة الله. وكان كل واحد يناقش الآخر في حرية.

أما اليوم فكل واحد يطلق على الآخر الرصاص.

و لا أحد يفكر كيف يعرف نفسه، ولكن كيف يشبع نهم تلك النفس الجشعة بلا حدود.

و النفس تدفن شيئاً فشيئاً تحت ركام البضائع الاستهلاكية، يخنقها طمعها اللانهائي.

نحن نتأخر.

الأدوات في أيدينا تنمو في القوة باطراد حسابي كما تنمو الأموال تلقائياً في البنوك.

و لكن التقدم ليس أن تنمو الأدوات، وإنما أن ينمو الإنسان.

ليس أن يسيطر الإنسان على الآخرين، وإنما أن يسيطر على نفسه، على غضبه.

ليس أن يمتلك الإنسان القوة، بل أن يمتلك الرحمة.

ليس أن يفرض الشرق مذهبه على الغرب، ولا أن يفرض الغرب مذهبه على الشرق، وإنما أن ترحب الصدور ليقول كل واحد كلمته.

صحيح أننا الآن نركب صواريخ ونسير بسرعة، ولكن إلى وراء، وإلى تحت، وإلى خلف، وإلى دغل كثيف نعود فيه حيوانات أكثر افتراساً من كل الحيوانات.. حيوانات مخالبها ذرية وأنيابها نووية. مسوخ اختل فيها التوازن فأصبحت لها أبدان هائلة، وقلوب ضئيلة، وأرواح هزيلة.

الجنس البشري الآن هو الديناصور الجديد الذي سوف ينقرض.

و اقرأوا التاريخ لتعرفوا كيف كان على الأرض منذ ملايين السنين حيوان هائل ضخم كالجبل، يحكم جميع الحيوانات، اسمه الديناصور، ثم انقرض وهلك. والسبب أنه كان قوياً جداً ومغفلاً.

***

الرد على التساؤلات

تصلني أحيانا من القراء تعليقات جادة وتساؤلات حول مقالاتي الأخيرة.. والبعض يلتقط عبارات من كتب قديمة صدرت لي منذ عشرين عاما محاولا أن يشهد الناس.. كيف كنت ملحدا ثم أصبحت مؤمنا.. يا له من تناقض وجريمة لا تغتفر لمفكر..

و يبدو أن المفكر الأمثل عندهم هو قطعة رخام لا تنتقل من مكانها، أو مستنقع أسن لا يتجدد ماؤه، أو حياة خاملة راكدة آلية لا تتطور.

و يتصور الواحد منهم الفضيلة والذمة في أن يكتشف الكاتب خطأه فلا يصححه ولا يرجع عنه.

و يتصور الكمال في العجرفة الفكرية والجمود والتعصب والثبات ولو على الخطأ (طالما أن هذا الخطأ في صالحهم).

و لو كنت مؤمنا تحولت إلى الإلحاد لأخذوني بالأحضان، ولقالوا هذا هو المفكر الشريف بحق.. هذا هو رائد النقد الذاتي.

و لكن لمّا كان نقدنا لذواتنا على غير هواهم أصابهم عمى الألوان فرأوا الأبيض أسود، ورأوا الفضيلة رذيلة، والذمة خيانة.

و لقد حارب خالد بن الوليد ضد الإسلام بشراسة وأنزل الهزيمة بالمسلمين في أحد.. ثم آمن وحمل لواء الدعوة وأصبح سيف الله المسلول، فلم يقل أحد إنه رجل متناقض بلا مبدأ.

و حارب عمر بن الخطاب الدعوة الإسلامية في بدايتها بضراوة ثم اعتنق نفس الدين الذي سبه وسفهه وحاربه.. فلم يشكك أحد في إيمانه ولا في صدقه ولا في ذمته.

و الإنسان في شبابه مندفع بطبيعته، يؤمن بالساذج البسيط، الواضح الملموس

أمامه، ولهذا فهو يستريح إلى المادية والفكر المادي، لأنها لا تطالبه بشيء غير الموجود أمامه، فهي تبدأ من القريب المحسوس ولا تتجاوزه، ولا تجهد الذهن استخلاصا للحكمة من ورائه.. بل إنها لا تعتقد في وجود حكمة.. لا شيء سوى المادة التي تتطور تلقائيا بقوانينها الجدلية الخاصة.

و المفكر المادي لا يحاول حتى أن يسأل نفسه من الذي وضع في المادة قوانينها الجدلية هذه.

و هو يرفض الدين لأنه غيبيات.

و هو نفسه غارق في الغيبيات إلى أذنيه.

بل إن العلم نفسه الذي يتشدق به ويحتكم إليه غرق في الغيبيات هو الآخر.

العلم يتكلم عن الإلكترون على أنه حقيقة.. ولم يرى أحد الإلكترون.. ولا نعلم عن الإلكترون إلا آثاره.. أما الإلكترون ذاته فهو غيب.

و بالمثل الموجة اللاسلكية لا نعلم عنها إلا آثارها في عمود الإرسال وجهاز الاستقبال.. لم يرى أحد تلك الموجة الأثيرية ولم يعرف أحد كنهها.

بل إن الكهرباء ذاتها هي الأخرى طاقة لا شك فيها ومع ذلك فهي مجهولة الهوية تماما.. ولا نعرف عنها إلا مجموعة آثارها الظاهرة من حرارة إلى ضوء إلى حركة مغناطيسية.

فإذا قلنا لهم إن الله بالمثل عرفناه بآثاره وإن هويته غيب لم يعجبهم كلامنا.

بل إن المفكر المادي يقول في جرأة عجيبة.. ((في البدء كانت المادة ثم تطورت المادة إلى كافة صور الحياة والفكر)) وكأنه كان موجودا لحظة بداية الخلق متربعا في كرسي بلكون يتفرج على ميلاد الدنيا.

هو يتكلم عن غيب ويبدأ من غيب.. ولا يملك إلا افتراضات واحتمالات ونظريات.. ثم يتهمنا بالغيبية.

و هؤلاء هم دراويش المادية لا وسيلة لإقناعهم، لأنهم لا يريدون اقتناعا.. وإنما هم اختاروا الجمود العقائدي وتشنجوا عليه، واستراحوا إلى ما فيه من تبسيط مخل وتلخيص ساذج للحقائق الكونية..

و ليس أبعث للراحة من اعتقاد الإنسان أنه لا مسئولية هناك، ولا بعث ولا حساب، وأن له أن يفعل ما يشاء لا رقيب عليه ولا حسيب سوى البوليس والمخابرات.

و مثل هذه العقيدة المادية أقرب إلى قلب الشباب المندفع الذي يريد أن ينطلق على هواه بلا علامات مرور، وبلا ضوابط، وبلا مساءلة.

و ليس صحيحا أن الفكر الإلحادي المادي هو الذي أعطانا حياتنا المتقدمة بما فيها من قطارات وعربات وطائرات وصواريخ وراديو وتليفزيون.. فهذه الأشياء هي عطاء العلم.. والعلم تراث متاح للكل.. ولا مذهب له.. يطلبه رجل الدين كما يطلبه رجل الفكر من يمين ويسار.

كان العلم يرفع راياته في مصر الفرعونية الوثنية كما كان يرفع راياته في صدر الإسلام.

العلم تراث بشري لا يستطيع أن يدعي أحد ملكيته وليس صحيحا أن الدين يناقض العلم.

و ديننا يأمر بالعلم في أول آية من القرآن ((اقرأ)).

أمر صريح بالعلم والتعلم في أول حرف نزلت به تعاليمنا السماوية.

و العلماء عندنا هم ورثة الأنبياء، وهم في القرآن في درجة الملائكة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران:١٨)

و الذي يتصور تناقضا بين الدين والعلم لا يعرف ما الـدين ولا مـا العلـم.. وإنـما يريد أن يختلق لنفسه مبررا للرفض. وما أسهل الرفض.

***

إنذار

اربطوا الأحزمة على المقاعد.

هذه العبارة التي تظهر بالنور الأحمر في كل طائرة كلما بدأت في الهبوط أو الارتفاع منذرة بأن تغييرا خطيرا يقع.. أشعر الآن بأن مثل هذه العبارة تظهر في عربة الحضارة التي نركبها جميعا نحن الجنس البشري في هذا الزمان منذرة بالهبوط إلى مرحلة أسفل..

أسمع هذا النذير.. بأننا يجب أن نربط الأحزمة على المقاعد.. ليس لأننا نرتفع.. وإنما لأننا نهبط.. ونهبط.. ونتدهور.

المذابح في فيتنام.. القتل الجماعي في نيجيريا.. أنهار الدم في أنجولا.. قتال العراق وإيران وحرق اللاجئين في الأردن.. الحرب الأهلية في لبنان.. تفجير القنابل الهيدروجينية تحت الأرض وتحت البحر.. وإطلاق صواريخ مدارية تحمل الموت في أحزمة حول الأرض.

في الشرق والغرب يخرج الوحش البشري مخالبه ويلوح بأنيابه.. لم يعد يستحي ولم يعد يخجل.. لم يعد يلجأ إلى أسلوب الديبلوماسي المهذب الذي يتكلم باسم الحرية والديموقراطية وتحرير الشعوب من الاستغلال والاستعباد..

لم يعد يرفع راية السلام ويردد الشعارات النظرية البراقة ويسوق المنطق الفلسفي المحكم.. وإنما كشف النقاب فجأة عن حقيقته.. فإذا بنا أمام دول كبرى تريد أن تسود.. وقوى تتصارع على السلطة لا غير..

المعسكر الشيوعي خرج منه عملاقان يبادلان بعضهما العداوة أكثر مما يبادلان عدوهما المشترك الرأسمالية.. مناقضين بذلك منطوق الشيوعية ذاتها وكأنه مجرد حبر على ورق.. لم يعد التاريخ يحركه صراع الطبقات، فها هنا معسكران هائلان.. بروليتاريا.. وبروليتاريا وكلاهما يتصارعان.

و الرأسمالية بدورها بدأت تمارس علنا أبشع جريمة في التاريخ على أرض فيتنام والصهيونية كشفت عن وجهها في لبنان.. والشيوعية في أفغانستان.

و الأساطيل راحت تذرع البحار تستعرض عضلاتها.

و الطائرات انطلقت تزمجر في الجو وتتنافس في بث الرعب.

و الأقمار الصناعية راحت تتسابق في التجسس.

و الصواريخ.. كل صاروخ يقول للآخر.. أنا أطول منك مدى.

القوة.. القوة.. القوة..

الحضارة المادية انتهت إلى تسخير العلم لصناعة القوة.. لابتكار وسائل الموت.. المجاعة ونقص التغذية والفاقة تفترس قارات.. والملايين ترصد للسلاح.. وفائض القمح يلقى في البحر ليرتفع سعره.

لقد أفلست الحضارة المادية. وإن أعلن إفلاسها.. وأشعر بأن عربة الحضارة تهبط بنا إلى أسفل وأسفل وأسفل..

و إن علينا أن نربط الأحزمة على المقاعد استعدادا للخطر الماحق.

و علينا أن نواجه أنفسنا بالحقيقة ونكف عن ترويج الأكاذيب ونكف عن التشدق بحريات لا وجود لها.

فقد عادت عصور المرتزقة والإنكشارية.

و هناك ألوف يقبضون مرتباتهم لأنهم يقتلون تحت أي راية.

و الجاسوسية تحولت إلى فن.. ((كيف تكون جاسوسا مزدوجا)) تتجسس لأمتك وضدها وتعمل بذمتين ولحساب من يدفع أكثر.

و المذاهب تحولت إلى ذرائع للسلطة وللاستهلاك الصحفي وتبرير تحكم الأقوياء

في الضعفاء، وظلم الأقوياء للضعفاء، واستبداد الأقوياء بالضعفاء..؟

و هذا إعلان إفلاس حقيقي.

لقد عجزت الفلسفة المادية أن تصنع إنسانا وإن كانت قد صنعت قنبلة، ونحن ماضون إلى سقوط محقق إن لم نبادر إلى تغيير دفة المركبة الحضارية كلها في اتجاه آخر. هذه المرة ليس نحو فلسفة مادية.. ولكن نحو فلسفة تعترف للإنسان بروح وذات خلقها الله حرة جديرة بالخلود.

العودة إلى فلسفة روحية تأخذ من العلم كل ما يعطيه وتضيف عليه من خصبها.

و من أين تخرج مثل هذه الفلسفة إلا من الشرق!!

فهل يعود الإلهام فينبع مرة أخرى وهل تشرق شمس جديدة وهل يسود السلام والإسلام أم أننا نهبط إلى هوة النهاية؟.

أود التنويه إلى أن الكتاب يحتوي على أربعين مقالا تمت طباعة عشرون منها فقط.

***

لماذا تمرض نفوسنا؟!!

المؤمن لا يعرف شيئا اسمه المرض النفسي لأنه يعيش في حالة قبول وانسجام مع كل ما يحدث له من خير وشر.. فهو كراكب الطائرة الذي يشعر بثقة كاملة في قائدها وفي أنه لا يمكن أن يخطئ لأن علمه بلا حدود، ومهاراته بلا حدود.. فهو سوف يقود الطائرة بكفاءة في جميع الظروف وسوف يجتاز بها العواصف والحر والبرد والجليد والضباب.. وهو من فرط ثقته ينام وينعس في كرسيه في اطمئنان وهو لا يرتجف ولا يهتز إذا سقطت الطائرة في مطب هوائي أو ترنحت في منعطف أو مالت نحو جبل.. فهذه أمور كلها لها حكمة وقد حدثت بإرادة القائد وعلمه وغايتها المزيد من الأمان فكل شيء يجري بتدبير وكل حدث يحدث بتقدير وليس في الإمكان أبدع مما كان.. وهو لهذا يسلم نفسه تماما لقائده بلا مساءلة وبلا مجادلة ويعطيه كل ثقته بلا تردد ويتمدد في كرسيه قرير العين ساكن النفس في حالة كاملة من تمام التوكل.

و هذا هو نفس إحساس المؤمن بربه الذي يقود سفينة المقادير ويدير مجريات الحوادث ويقود الفلك الأعظم ويسوق المجرات في مداراتها والشموس في مطالعها ومغاربها.. فكل ما يجري عليه من أمور مما لا طاقة له بها، هي في النهاية خير.

إذا مرض ولم يفلح الطب في علاجه.. قال في نفسه.. هو خير.. وإذا احترقت زراعته من الجفاف ولم تنجح وسائله في تجنب الكارثة.. فهي خير.. وسوف يعوضه الله خيرا منها.. وإذا فشل في حبه.. قال في نفسه حب فاشل خير من زيجة فاشلة.. فإذا فشل زواجه.. قال في نفسه الحمد لله أخذت الشر وراحت.. والوحدة خير لصاحبها من جليس السوء.. وإذا أفلست تجارته قال الحمد لله لعل الله قد علم أن الغنى سوف يفسدني وأن مكاسب الدنيا ستكون خسارة علي في الآخرة.. وإذا مات له عزيز.. قال الحمد لله.. فالله أولى بنا من أنفسنا وهو الوحيد الذي يعلم متى تكون الزيادة في أعمارنا خيرا لنا ومتى تكون شرا علينا.. سبحانه لا يسأل عما فعل.

و شعاره دائما: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(البقرة:٢١٦).

و هو دائما مطمئن القلب ساكن النفس يرى بنور بصيرته أن الدنيا دار امتحان وبلاء وأنها ممر لا مقر، وأنها ضيافة مؤقتة شرها زائل وخيرها زائل.. وأن الصابر فيها هو الكاسب والشاكر هو الغالب.

لا مدخل لوسواس على قلبه ولا لهاجس على نفسه، لأن نفسه دائما مشغولة بذكر العظيم الرحيم الجليل وقلبه يهمس: الله.. الله.. مع كل نبضة، فلا يجد الشيطان محلا ولا موطئ قدم ولا ركنا مظلما في ذلك القلب يتسلل منه.

و هو قلب لا تحركه النوازل ولا تزلزله الزلازل لأنه في مقعد الصدق الذي لا تناله الأغيار.

و كل الأمراض النفسية التي يتكلم عنها أطباء النفوس لها عنده أسماء أخرى:

الكبت اسمه تعفف

و الحرمان رياضة

و الإحساس بالذنب تقوى

و الخوف (و هو خوف من الله وحده) عاصم من الزلل

و المعاناة طريق الحكمة

و الحزن معرفة

و الشهوات درجات سلم يصعد عليها بقمعها ويعلو عليها بكبحها إلى منازل الصفاء النفسي والقوة الروحية

و الأرق.. مدد من الله لمزيد من الذكر.. والليلة التي لا ينام فيها نعمة تستدعي

الشكر وليست شكوى يبحث لها عن دواء منوم فقد صحا فيها إلى الفجر وقام للصلاة

و الندم مناسبة حميدة للرجوع إلى الحق والعودة إلى الله

و الآلام بأنواعها الجسدي منها والنفسي هي المعونة الإلهية التي يستعين بها على غواية الدنيا فيستوحش منها ويزهد فيها

و اليأس والحقد والحسد أمراض نفسية لا يعرفها ولا تخطر له على بال

و الغل والثأر والانتقام مشاعر تخطاها بالعفو والصفح والمغفرة

و هو لا يغضب إلا لمظلوم ولا يعرف العنف إلا كبحا لظالم

و المشاعر النفسية السائدة عنده هي المودة والرحمة والصبر والشكر والحلم والرأفة والوداعة والسماحة والقبول والرضا

تلك هي دولة المؤمن التي لا تعرف الأمراض النفسية ولا الطب النفسي..

و الأصنام المعبودة مثل المال والجنس والجاه والسلطان، تحطمت ولم تعد قادرة على تفتيت المشاعر وتبديد الانتباه.. فاجتمعت النفس على ذاتها وتوحدت همتها، وانقشع ضباب الرغبات وصفت الرؤية وهدأت الدوامة وساد الاطمئنان وأصبح الإنسان أملك لنفسه وأقدر على قيادها وتحول من عبد لنفسه إلى حر بفضل الشعور بلا اله إلا الله.. وبأنه لا حاكم ولا مهيمن ولا مالك للملك إلا واحد، فتحرر من الخوف من كل حاكم ومن أي كبير بل إن الموت أصبح في نظره تحررا وانطلاقا ولقاء سعيد بالحبيب.

اختلفت النفس وأصبحت غير قابلة للمرض.. وارتفعت إلى هذه المنزلة بالإيمان والطاعة والعبادة فأصبح اختيارها هو ما يختاره الله، وهواها ما يحبه الله.. وذابت الأنانية والشخصانية في تلك النفس فأصبحت أداة عاملة ويدا منفذة لإرادة ربها. وهذه النفس المؤمنة لا تعرف داء الاكتئاب، فهي على العكس نفس متفائلة تؤمن بأنه لا وجود للكرب مادام هناك رب.. وأن العدل في متناولنا مادام هناك عادل.. وأن باب الرجاء مفتوح على

مصراعيه مادام المرتجى والقادر حيا لا يموت.

و النفس المؤمنة في دهشة طفولية دائمة من آيات القدرة حولها وهي في نشوة من الجمال الذي تراه في كل شيء.. ومن إبداع البديع الذي ترى آثاره في العوالم من المجرات الكبرى إلى الذرات الصغرى.. إلى الالكترونات المتناهية في الصغر.. وكلما اتسعت مساحة العلم اتسع أمامها مجال الإدهاش وتضاعفت النشوة.. فهي لهذا لا تعرف الملل ولا تعرف البلادة أو الكآبة.

و حزن هذه النفس حزن مضيء حافل بالرجاء، وهي في ذروة الألم والمأساة لا تكف عن حسن الظن بالله.. ولا يفارقها شعورها بالأمن لأنها تشعر بأن الله معها دائما، وأكثر ما يحزنها نقصها وعيبها وخطيئتها.. لا نقص الآخرين وعيوبهم.. ولكن نقصها لا يقعدها عن جهاد عيوبها.. فهي في جهاد مستمر وفي تسلق مستمر لشجرة خطاياها لتخرج من مخروط الظل إلى النور المنتشر أعلى الشجرة لتأخذ منه الحياة لا من الطين الكثيف أسفل السلم.

إنها في صراع وجودي وفي حرب تطهير باطنية.. ولكنه صراع هادئ واثق لا يبدد اطمئنانها ولا يقتلع سكينتها لأنها تشعر بأنها تقاتل باطلها بقوة الله وليس بقوتها وحدها.. والإحساس بالمعية مع الله لا يفارقها، فهي في أمن دائم رغم هذا القتال المستمر لأشباح الهزيمة ولقوى العدمية بداخلها.. فهي ليست وحدها في حربها.

ذلك هو الجهاد الأكبر الذي يشغل النفس عن التفاهات والشكايات والآلام الصغيرة ويحفظها من الانكفاء على ذاتها والرثاء لنفسها والاحتفاء بمواهبها.. فهي مشغولة عن نفسها بتجاوز نفسها وتخطي نفسها والعلو على ذاتها.. فهي في رحلة خروج مستمرة.. رحلة تخطي وصعود، ودستورها هو: (أن تقاوم أبدا ما تحب وتتحمل دائما ما تكره)

و مشاعر هذه النفس منسابة مع الكون متآلفة مع قوانينه متوافقة مع سننه متكيفة

بسهولة مع المتغيرات حولها.. فيها سلاسة طبيعية وبساطة تلقائية.. تلتمس الصداقة مع كل شيء.. ومثالها الكامل هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان يحتضن جبل أحد ويقول: هذا جبل يحبنا ونحبه.. فالمحبة الشاملة هي أصل جميع مشاعرها.. إنها في صلح دائم مع الطبيعة ومع القدر ومع الله.. والوحدة بالنسبة لهذه النفس ليست وحشة بل أنس.. وليست خواء بل امتلاء.. وليست فراغا بل انشغال.. وليست صمتا.. بل حوار داخلي واستشراف نوراني.. وهي ليست وحدة بل حضن آمن.. وعذابها الوحيد هو خطيئتها وإحساسها بالبعد والانفصال عن خالقها.. وهو عذاب يخفف منه الإيمان بأن الله عفو كريم تواب يحب عباده الأوابين المستغفرين.. وهي أقرب ما تكون إلى ربها وهي ساجدة ذائبة حبا وخشوعا.. يقول بعض الأولياء الصالحين: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف، ولكن أنى للملوك أن يعرفوها وهم غرقى الدنيا وسجناء ماديتها.

إن السبيل إلى ميلاد تلك النفس وخروجها من شرنقتها الطينية هو الدين والطاعة والمجاهدة ولا يوجد سبيل آخر لميلادها.. فالعلم لا يلد الا غرورا والفن لا يلد الا تألها.. والدين وحده هو المحضن الذي تتكامل فيه النفس وتبلغ غايتها.

و بين العلماء مرضى نفوس مشغولون باختراع القنابل والغازات السامة.

و بين الفنانين متألهون غرقى اللذائذ الحسية

و الدين وحده هو سبيل النفس إلى كمالها ونجاتها وشفائها

و النفس المؤمنة نفس عاملة ناشطة في خدمة الآخرين ونجدتهم لا يقطعها تأملها عن الشارع والسوق وزحام الأرزاق.. والعمل عندها عبادة.. والعرق والكدح علاج ودواء وشفاء من الترف وأمراض الكسل والتبطل.. حياتها رحلة أشواق ومشوار علم ورسالة خدمة.. والعمل بابها إلى الصحة النفسية.. ومنتهى أملها أن تظل قادرة على العمل حتى النفس الأخير وأن تموت وهي تغرس شجرة أو تبني جدارا أو توقد شمعة.. تلك

النفس هي قارب نجاة، وهي في حفظ من أي مرض نفسي، ولا حاجة بها إلى طب هذه الأيام، فحياتها في ذاتها روشتة سعادة..

***

أناشيد الإثم والبراءة

الحب

ملفوف أنا بين ذراعيك يا حبيبتى

ذراعاك مسكنى وغرفتى

وصدرك أرجوحتى

وخداك وسادتى وبردتى

وعيناك اغفاءتى وراحتى

وكفاك ظلتى وواحتى

يا ضحكتى ودمعتى

ودميتى ولعبتى

يا وطنى يا أمى يا طفلتى

يا وصلة السر بالسر عند باب الموت والميلاد

والمخاض والضنى

صدرك الرحمة الحنان

ويداك الشفاء والغذاء والمودة

ونفسك السماوات الجميلة

لا تغيب عنها الشمس

ولا تظلم الليل ولا النهار

ولا تغيم فى الليالى الشاتية

تجولت فى العالم وعدت وأنا ما زلت بين شفتيك

وصعدت إلى السماوات وجاوزت الثريا وأنا

ما زلت أتطلع إلى عينيك

فى حضورك تكلم الصمت

وبين يديك توقت الزمن

وأصبح الماضى والحاضر والمستقبل هو الآن

وهرولت ساعات الآن ثم ذابت كأنه لحظة

وخيل إلينا من شفافية كلماتنا أننا هواء

وخيل إلى أنى لا أمسك شيئاً

وأننا تحولنا إلى كلمة

ثم تجردت الكلمة فأصبحت معنى

ثم انتشر المعنى كالعطر وتخلل كل شيء

ذلك هو وجودنا معاً يا حبيبتى

يجعل كل شيء ينطق

يجعل كل شيء ملكاً خاصاً لنا

ويجعل من العالم شقتنا الخاصة

وفتحنا أعيننا على عالم جديد فى كوكب آخر

ومنحنا حياة جديدة نعيشها جديدة كل الجده

حبيبتى ماذا شربنا.. ؟!

وماذا سكبت لى فى الكأس

لا شيء سوى قطرات من نور عينيك وذوب قلبك

إلهى.. أيها القادر على كل شيء

كيف يشرب الناس الخمر. وفى قلوبهم كل هذا الرحيق

المعذرة

حبيبتى..

برئت من يدى

وبرئت من عينى

وبرئت من جلدى

إن كانت النوايا آثمة

وأخوفى من علم ربى بالسرائر !!

ويلنا ظلمنا نفسنا

هلكنا من اليوم لا نجاه

إن لم نفز بمغفرة

يا ضيعة العمر إن لم نفز بمغفرة

بل لا ييأس من روح الله إلا الكفرة

ظلمت ربى الغفار الذى وسع كل شيء رحمة وعلما

والذى خلق الضعف

كيف لا يحنو عليه أكثر من حنو الأم بالوليد

كيف لا يشفيه من نفسه ويرحمه

الابتهال

إلهى.. يا منبع جميع الأنوار

ترى من نحب حينما ننظر إلى بعضنا البعض.. ؟!

وهل نحب إلا نورك أنت وأثر يديك على الصلصال

وهل يسكرنا إذا سكرنا إلا نفخة روحك التى نفختها فينا

وهل نطالع فى كل جميل إلا وجهك

وهل كل يد شافية وكل قبلة رحيمة إلا ترجما رحمتك

فكيف يا إلهى تضل بنا الأودية وتتفرق السكك ونخرج من اسمك إلى أسمائنا فنسجن أنفسنا فى هذا الصدر أو نتوه فى ذلك العنق أو نهاجر فى تلكما العينين وتتسكع أيدينا على نحاس الأضرحة فنلثم الشفاه ويخيل إلينا نذوق خمرك وما نذوق إلا زجاج الكئوس التى أودعت فيها ذلك الرحيق الخفى الذى هو سر أسرارك.

ويخيل إلينا أننا بلغنا المنتهى وما بلغنا إلا لمس الغلاف وتحسس المحارة أما اللؤلؤ داخل المحارة.. والنور المغيب فى شغاف القلوب والسر المودع فى العيون فليس لنا منه إلا حظ القرب والمطالعة والاستشراف من بعيد حيث لا وصال ولا اتصال ولا انفصال ولا نوال.. وإنما فى الذروة من الإحساس.. يأتى ذلك الإغماء.. وتلك الغيبوبة الصاحية.. وتلك النشوة الغامرة.. حينما نوشك أن نكون قاب قوسين أو أدنى من لقاء السر بالسر.

ولا سر إلا سرك وأن تعددت الأسماء وتنوعت المفاتن واختلفت الوجوه.

إنما هو أنت وحدك المحبوب أينما توجه قلب محب.. وأنت وحدك المعبود أينما توجهت نظرات عابد.

وأنت وحدك الرزاق وأن تعددت الأيدى التى تعطى.

إنما تستمد جميع المصابيح من نورك.

كل مصبا يأخذ منك على حسب استعداده ويعطى من نورك على حسب شفافيته.

ولكن العطاء فى الأصل منك والجمال منك والنور منك.

سبحانك لا شريك لك.

سبحانك والحمد لك.

سبحانك والحب لك.

سبحانك ما لثمت إلا أياديك وما قبلت إلا وجهك.. وما سبحت إلا لنور عينيك وإن نطقت فى كل مرة اسما غير اسمك فإنما هو ضلال اللسان فى القراءة وضلال العين فى الرموز وقراءة الشيطان للشفرة الخطأ.. وإنما هو التخبط فى الحجب ولثم الأضرحة وتقبيل النحاس.. وغفلة الطبع عن الحقيقة.

يا رب.. سألتك باسمك الرحمن الرحيم أن تنقذنى من عينى فلا ترينى الأشياء إلا بعينك أنت وتنقذنى من يدى فلا تأخذنى بيدى بل بيدك أنت تجمعنى بها على من أحب عند موقع رضاك.. فهناك الحب الحق.. وهناك أستطيع أن أقول.. لقد اخترت.. لأنك أنت الذى اخترت.. وأنت الوحيد الذى توثق جميع الاختيارات وتبارك كل الحريات.. أنت الحرية ومنك الحرية وبك الحرية وأنت الحب ومنك الحب وبك الحب.

أنت الحق والحقيقة.

وما عدا ذلك أضرحة ونحاس وخشب وصلصال وحجارة وأهداب وعيون ومحاجر وأوثان تسجد لأوثان.

لا تدعنى يا إلهى فى الظلمة ألثم الحجارة وأعانق الصلصال وأعبد الوثن.

بشفة الشيطان لثمت هذه الأشياء وظننت أنها شفتى وبذراعى الشيطان عانقت وظننت أنهما ذراعاى.

استحلفتك بضعفى وقوتك

وأقسمت عليك بعجزى واقتدارك

إلا جعلت لى مخرجاً من ظلمتى إلى نورى ومن نورى إلى نورك سبحانك.. لا إله إلا أنت .

لا إله إلا الله

***

بدون خيانة من أحد

تسألنى.. ما الذى أحببته فيك.

سوف تعجب إذا قلت لك إنها تجاعيد جبينك والخطوط الغائرة فى خديك وذلك الحزن القديم فى صوتك والإرهاق المستمر فى عينيك وتلك الخطى المكدودة والكلام القليل والشرود والصمت الحائر وكأنك تحاول أن تمسك بحبال اللا شيء .

إنه الضنى..

ضنى المشوار الطويل الذى مشيته.

الضنى مجسداً فى ملامح وصوت وإنسان وقد أحببت فيك هذا الضنى الناطق المعبر.

أنه الإنسانية كلها فى رجل.

وحينما أعطيتك يدى لتحتويها يدك وأعطيتك أسرارى لتفترشها أسرارك.. أدخلتك من لحظتها فى سواد العين وأسكنتك المهجة وأصبحت أتنفسك مع كل شهيق وزفير وأعيشك مع الفطور وفنجان الشاى وجرائد الصباح وتليفونات الأقارب وصوت المترو وضجيج الميناء.

أنها أيام نادرة.. ذلك اللقاء العابر فى نابولى.

بل هى حالة خاصة جداً ونادرة أن يلتقي اثنان كل منهم تجرد من ظروفه وطرح خلفه كل شيء من ماض وهموم وارتباطات ومشاكل ليعطى نفسه خالصة مجردة نقية للآخر.

إنها لحظات أشبه بماء أعيد تقطيره من شوائه وأعيد ترشيحه من رواسبه عدة مرات حتى أصبح شفافاً رائقاً مقطراً نقياً مثل النور المذاب.

وكذلك كانت نشواتنا فى تلك الأيام.

كانت مستخلصة نقية رائعة صافية مثل أشعة الفجر.. وكان طعمها وكأنها من كوكب آخر.. وكأنها من الجنة.

تلك حالة لم أعشها طوال حياتى من قبل.. ولم أعرفها.

ولا أظن أنى سوف أعيشها بعد ذلك أو أعرفها أبداً.

أنت تقول.. كنا نحلم.

وأنا أقول.. بل كل لحظة كان واقعية.. وكل دقيقة كان حقيقة.. وأكاد أشم عطرك فى مناديلى وأكاد أشعر بعرق يديك فى كفى بل كل حياتى قبلها كانت هى الحلم.

وكل حياتك قبلها كانت خيالاً.

وكل الدنيا قبلها كانت وهماً.

كنت عمياء طول الوقت حتى أبصرتك وكنت وحيدة حتى صاحبتك وكنت لا آكل ولا أشرب حتى أكلت معك وشربت معك.. وكنت لا أضحك ولا أبكى حتى ضحكت معك وبكيت معك.

لمنكن نحلم أذن ولم يكن ما نعيشه حلماً بل كان صحوة.

ولكنها كانت مجرد فترة.

كانت مجرد صفحات من كتاب العمر ما لبثت أن طوتها يد الأجل التى لا تكف عن الجريان.

وحينما التقينا بعد ذلك فى القاهرة قلت لى ساعتها.. أنك صدمت.

قلت لى أنك تصافح امرأة أخرى.. امرأت تكاد لا تعرفها.. وتكاد لا تعرفك.

واتهمتنى ساعتها بخيانتك.. وبأن هناك رجلاً آخر.. ورميتنى بالغدر.. والتلون.

ولكن لم يكن فى الأمر خيانة.

وإنما كل ما حدث أن كلاً منا عاد إلى جلده والتقى بالآخر مرتدياً مناخ ظروفه الكامل مخنوقاً بمشاكله.

شاركتنا جلستنا على النيل قضية طلاقى من زوجى ومستقبل أولادى ورجل آخر كان يريد أن يتزوجنى ونفقات علاج امى المريضة بالخارج كما شاركنا الجرسون يناديك كل دقيقة لترد على تليفون وتحيات معجبات على الموائد الأخرى عرفن فيك الموسيقار المشهور ثم دخول واحدة بعد الأخرى على خلوتنا لتوقع لها فى الأوتوجراف.. ثم مرور أولادك ليشاركونا الشاى.. ثم حكاية زوجتك الأولى ومضايقاتها.. ثم حكاية الفيلم.. ثم.. ثم.. ويومها اختلف كل شيء.

فقد اطمئنانى كما فقد أنت اطمئنانك.

شعرت لأول مرة بأنك لست ملكى وإنما لى فيك شركاء عديدون يشاركوننا الجلسة والحديث ثم باقى الليلة وباقى العمر سوف يشاركوننا الطعام والفراش والحياة.

كما شعرت أنت أيضاً بنفس الشيء .

لم تجد تلك المرأة الخالصة التى رأيتها فى نابولى.. وإنما رأيت زحاماً من الناس والمشاكل.

وانكرتنى..

وأنكرت نفسك.

وافتقدت ذلك الإحساس النادر بالخلوص والتجرد والنقاء.. كما افتقدته أنا أيضاً.

وافترقنا بوجوه فاترة.

وطالت الفرقة.

وأصبحت مكالماتنا على فترات أبعد وأبعد..

وكنت أحس بنبرة الشك فى صوتك.

ولكنى صدقنى يا مراد.

أنا لم أخنك مع أحد.

ولم أفكر فى خيانتك.

وإنما الخائن الحقيقى والشريك الذى شاركنا هو الحياة ذاتها بضغوطها وشواغلها وتنوعها وتلونها وحضورها وتكاليفها التى أبعطتنا وخنقت الروح فى داخلنا.

تلك اللحظة المستخلصة المرشحة المقطرة من ذوب نفسى ومن ذوب نفسك لم يعد

هناك سبيل إلى استعادتها.

لقد حدث هذا لقاء نادر عابر ذات أمسيات أبداً وهذا طبع الدنيا.

إن الخيانة كانت فى الدنيا نفسها ولم تكن فينا.

والحكاية أننا سقطنا من كوكب الجنة إلى الأرض فجأة ولم نعد نقبل تلوث الهواء وتضاغط الزحام وتدافع المناكب وتلاحم الأحقاد والأضغان فى نسيج لقمة العيش المريرة.

كيف نشرب الماء مالحاً بعد أن ذقناه عذباً فراتاً.

كيف نعيش التلوث بعد أن عشنا النقاء.

كيف نزحف على بطوننا فى أوحال المشاكل بعد أن كنا نحلق بأجنحتنا ويشاركنى فيك.

كيف أحبك فى اطمئنان وكل هذه الضوضاء حولك وأضواء الكاميرات حولك وعيون حسناوات عديدات تلمع حولك فى كل صورة.. ولك واحدة تهددنى فى مستقبلى. وأنت.

ماذا كان شعورك وأنت تقرأ خطابات ذلك المجهول الذى يغازلنى.. وماذا قال لك خيالك وأنت تستمع إلى أولادى يحكون عن أبيهم وكيف كان يحبنى وكيف كنت أحبه.. ثم ذلك الرجل الذى ينتظرنى منذ عشرين عاماً ويحبنى فى صمت ورهبانية وفداء وينتظر اليوم الذى أكون فيه له.

هل يمكن أن تأخذنى بكل هؤلاء الشركاء وبكل هذه المنغصات التى سوف تسرقنى منك حتى وأنا بين ذراعيك.

هل يمكن أن ترضى بالشرود والغياب فى عينى وأنت تقبلنى.

وهل يمكن أن أقبل إعجاب امرأة أخرى وأنا أنظر إليك أم أن كلا منا سوف يرفض هذا الواقع ويعطى ظهره لصاحبه ويعود ليحلم بلقاء آخر فى نابولى.

يعود ليحلم بتلك النشوة الخالصة المستقطرة من النور المذاب.

هل يمكن أن ننزل من سماواتنا لنعيش حياة الأرض معاً.. وهل نصلح لحياة الأرض.

وهل نرضى حياة زوجية مكرورة باهتة.

ألا ننكر فيها ما انكرناه فى بعضنا اليوم ثم نعود فنغامر ونحاول أن نلمس سماء الجنة ولو أضعنا كل شيء ولو حطمنا بعضنا بعضاً.

لا أدرى كيف أجيب.

ونفسى تراوغنى كلما حاولت أفهمها.

فهل تدرى أنت.

صدقنى أنا لا أعرف ماذا أريد بالضبط.

ولا من أنا.

وكل ما أعلمه بيقين أنى عشت ذات يوم بملء الحياة وبملء النفس حينما كنت لى المهجة والفؤاد وسواد العين وكل شيء.

وإنها كانت لحظة عرفناها اختلاساً.

وإنها مرت ولا سبيل إلى عودتها أبداً.

ومأساة الزمن.. أنه لا توجد لحظة فيه تتكرر مرتين.. وأنما هو نهر دائم الجريان يتغير فيه الماء باستمرار وبلا توقف.

شيء واحد يمكن أن يردنى إليك هو إحساسى الدائم بأنه لا يوجد فى الكون نفسان تتبادلان معاً أخذاً وعطاء وبكل العمل مثل نفسى ونفسك.

وأحياناً أقول لنفسى.. حتى إذا لم يبق لى إلا الحزن.. فلا أجمل من أتبادله معك.. حتى الملل واليأس فلن يكونا كأعمق ما يكونان إلا معك..

والفشل هو أروع ما يكون معك.

والبؤس لن يكون هو البؤس العظيم إلا معك شيء مضحك.

كم أود أن انتقم منك.. يا حياتى.. وانتحارى.

إن الحقائق فى ذروة تناقضها تبدو دائماً مضحكة.

هكذا أشعر وأنت أبعد ما تكون عنى أنك أقرب ما تكون إلى.. وأنك فى دمى ونخاعى.. وفى انكارى واستنكارى ورفضى.

حينما أنكرك وأستنكرك وأرفضك.

هل أكرهك بمثل ما أحبك.

هل أصبحت كل عواطفى بسالبها وموجبها وقفا عليك.

الويل للمرأة حينما تتسمم أعمق آبارها برائحة رجل.

الويل لك منك.

والويل لى منى.

والويل لكل امرأة تنسى نفسها وتسرق منها الروح فى اغماضه عين.

والويل لنا من أنفسنا الأنانية حينما تطلب كل شيء ولا يرضيها أى شيء ولا يشبعها أى شيء.. حينما تصبح نفس كل منا هى جحيمه الأبدى لا خلاص منه ولو بالموت.

انقلاب

كتبت إلى تقول:

أنا زوجة لى عشر سنوات خدمة فى بيت الزوجية وأم لولدين طلقت أثناءها ثم عدت لأستأنف حياة فاترة بلا طعم لا حب فيه ولا كراهية ولا حماساً لشيء.

ضاعت الطرافة والبهجة والنشوة التى عرفتها فى سنوات الزواج الأولى حينما كنت أعطى بسخاء من روحى وعقلى وجسمى حيث بدأ زواجنا بحب واقتناع رغم فارق السن الكبير.

ولكن الطرافة سرعان ما انتهت وبدأت بينى وبين زوجى فجوة ظلت تتسع وتتسع حتى أصبحت حياتنا مجرد جوار ومساكنة لاثنين غريبين يتكلمان لغات مختلفة فى بيت واحد.. هو لياليه مقسمة بين شارع الهرم وبين سهرات الأصدقاء وصفقات العمل والعلاقات النسائية الخاصة.. وأنا أيامى أعيشها فى الغيظ والكبت والقهر.. ثم أتمرد على نفسى بين حين وآخر فأرد على خياناته بخيانات مثلها تبدأ لتنتهى بسرعة وتخلف فى داخلى حالة فى التشتت والضياع والخواء وعدم الرضى والإحباط التام.

وهكذا كانت حياتنا فى السنوات الأخيرة التى حدث فيها الطلاق ثم العودة.

ولا شك أنك تسأل الآن.. ولماذا عدت إليه بعد الطلاق؟ وعند حق.

وأنا أيضاً ما زلت أسأل نفسى.. لقد قلت لنفسى حينذاك.. أعود من أجل الأولاد.. وقلت لنفسى هو أبوهم وهو أفضل من الغريب.. وقلت لنفسى هو أقدر على توفير الحياة المادية المريحة والنفقات الباذخة التى تعودناها فهو غنى. لكن ربما كان السبب الأهم هو ذلك الرباط الخفى الذى يربطنا.. فإنه بما أعطانى وسلبنى وبما دمر فى نفسيتى من أخلاقيات ومثل.. أصبحت أشعر بعدها أنى من صنعه وأنى أدين له بالقلق وبالتوتر والخراب والشتات الذى أصبح الآن هو الحالة السائدة لنفسيتى.

كلانا أصبح مثل المأكولات المعلبة التى فسدت وكتب عليها غير صالح للاستعمال..

ورغم أنه لم يبق فى قلبى شيء من الغرام القديم..

ورغم أنى أصبحت لا أحبه ولا أكرهه..

إلا إنه بما أتلف وأفسد ودمر فى نفسيتى وعاداتى وسلوكياتى أصبح فى النهاية هو حياتى أصبح هو طبعى الخوان الغادر..

وهو عينى المتلفتة وراء الرجال وهو جرأتى التى أفعل بها ما أشاء..

فأنا أولى الناس به.

وهو أولى الناس بى.

وهكذا عدت إليه بحك التشاكل والمجانسة لأستأنف حياة أكثر فشلاً وأكثر إحباطاً وأكثر تورطاً.

ما أكثر ما تعكر الماء فى داخلى.

وما أكثر ما أظلمت سماواتى الجميلة الباطنية وأطبقت عليها السحب السود.

حتى قابلته

ذلك الرجل الناضج الإنسان الرقيق العطوف الحنون الذى طالما كنت أحلم به.

وتعلقت به تعلق الظمآن بالماء.. وتعلق هو بى وأمسك كل منا بالآخر وتعلق بتلابيبه.

وتشبث كفى بكفه كأنه طوق نجاة..

ومضت أيام كالحلم.

ومسحت يده على باطنى فأضاءت سماواتى وشعرت أنى أعود إلى بكارتى ونشواتى الأولى وأعود إلى تفتحى ونضارتى وتألقى وتوهجى وعطائى السخى بلا حدود ولكنها كانت مجرد أيام..

مجرد لحظات تحصى على أصابع يد واحدة ثم ما لبثت أن عادت السحب السود فأطبقت على داخلى وتعكرت مياهى حتى ظهر الخواء والشرود فى نظراتى فكان يقول لى دائماً.. أين أنت.. أنت لست معى..

نعم.. عدت عجوزاً دفعة واحدة..

وعاودتنى الغربة والإحساس بالشتات.. والعجز عن العطاء..

وأظلمت سماواتى.. وكفت يدى عن أن تنبض فى يده..

وأصبحت أشبه بورقة غياب.

إنه يحبنى بكليته ويريد الزواج بى ويعرض على نفسه وروحه وما يملك وأنا أشعر أنى متقلبة ملولة لا يستقر بعواطفى قرار.. ولك ما أحصل عليه أزهد فيه..

وانا اسأل نفسى..

هل أستطيع أن أبدأ حياة جديدة

هل أستطيع أن أقوم بعملية بتر كامل أقطع فهيا صلتى بالماضى بما فيه من خراب وتلف واعوجاج.

هل يمكن أن أكون خالصة له

ألن يدخل زوجى الأول بما أحدثه من أتلاف ودمار شريكاً خفياً فى هذه الزيجة.. وكذلك أولادى.. وكذلك أولاده هو فهو أيضاً زوج سابق وله أولاد..

وهل يبقى له ولى شيء بعد هذا الزحام

إنه مأخوذ بما أعطيت من حب وفناء ذات لحظة ذات مساء شاعرى.

ولكن هل يدوم لى هذا الصفاء وهل تدوم لى هذه القدرة على العطاء.

إنها لم تدم بالفعل..

ولقد رأى سماواتى تظلم ونظراتى تشرد ويدى تنسحب من يده..

ولقد افتقدنى وأنا معه ولقد رأيته يتألم لهذا الافتقاد ثم يعود فيقول

سوف أحبك فى كل حالاتك..

ترى هل يصدق

ومن يدريه بأن تلك الحالة ربما سادت وامتدت وأصبحت هى كل حالاتى.. وأصبحت لحظات الصفاء فى ندرة شمس الشتاء فى القطبين.

فهل يرضى بى زوجة شاردة غائبة مشتتة

وهل انتهى زوجى من حياتى بالفعل وخرج منها بلا عودة أم إنه مازال كل حياتى يربطنا نحن الاثنين دينونة واحدة وخراب تأصل حتى احتوانا.. رغم أننى لا أحبه ولا أكرهه.

أحياناً يخيل إلى أن بناء حياة جديدة بالنسبة لى أشبه بدولة صغيرة ربطت عملتها واقتصادها ومبادلاتها التجارية بدولة كبرى طاغية.. ثم هى تفكر بعد فوات الأوان فى قطع العلاقات وتغيير العملة وفسخ التعاملات لتبدأ علاقة جديدة بدولة جديدة.

وأحياناً أشعر أن حجم التبادلات مع هذا الرجل الذى أصبحت لا أحبه ولا أكرهه.. هو حجم يكاد يكون هائلاً حتى ليكاد يكون بخيره وشره هو حياتى.. ويكاد يكون الخروج من فلكه كالسقوط فى فراغ.

نعم.. هل أقول أنه بما أفسد ودمر.. له أثر فى نفسيتى وفى حياتى أكبر ن أثر هذا

الرجل الجديد.. وإن كان أثراً سيئاً هداماً.

أنه حضور.. ولو كان حضوراً بالسلب والإضرار والتخريب.

ولكنه حضور

وأنا لن أكون خالصة أبداً.

وسوف أجرجر خلفى العديد من الأشباح.

وسوف يشاركنا الفراش خلق كثير.

فهل يرضى بذلك الزوج الجديد.

وهل يحبنى بهذا الحال.

وهل أرضى أنا.

ألا أعود فأتلفت فى وجوه الرجال بحثاً عن لحظة هروب واسترخاء ونسيان ألا أعود فالتمس أى مهرب من التوتر والاحباط فى علاقات جديدة وخيانات جديدة..

ألا أعود فتجرنى قدماى إلى الزوج الأول بحكم الأولاد والمشاكلة فى المصير وحجم التبادلات التى قد ترجح فى النهاية ما بادلته أى رجل من خير وشر.

وأى رجعة فاشلة تكون.

إلى أين أسير.

وأين تسوقنى قدماى.

لا أريد أن أسير وراء الهوى بل وراء العقل ولا أريد أن أكرر الفشل.. ثم أعود فأعالج الفشل بفشل أكبر.

ولا أريد أن أظلم نفسى وأظلم من أحبنى معى.

ولا أريد أن استرسل فى أحلام بلا أمل من استقرار.

أريد بر أمان.

أريد راحة.

بماذا تنصحنى.

قرأت الرسالة ولبثت فى حيرة.

وطال بى التفكير.

أن هذه الزوجة بما وصفت به نفسها هى أبعد ما تكون عن الأمان وبر الأمان.. وهى فى خطر من نفسها أكثر مما هى فى خطر من أى مخلوق..

ولا نجاة لها إلا بانقلاب داخلى يبدلها من الأعماق ومعاناة تحرق حطبها وتذرى رمادها وتجلو معدنها من جديد.

لا بد لها أن تعبر الجحيم أولاً لتصل إلى بر أى بر..

لا بد لها أن تكتوى حتى نخاع العظم وتبكى حتى تبيض العينان وتسجد حتى تذوب وتبتهل حتى تفنى وتعطى نفسها لهدف كبير تضمحل معه الأهداف الصغيرة وتشغل عقلها برسالة شريفة تستغرقها وتستغرق همومها الشخصية..

فإن كان رجلها الجديد سيأخذ بيدها إلى هذه النقلة ويكون عوناً لها فى هذا الانقلاب الداخلى وهذا التطهر الكامل فهو نجاتها.

أما إن كان الأمر فى نظرها هو مجرد انتقال من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين.. فلن يكون انتقالاً ذا جدوى.. لأنها سوف تصحب معها فى كل مكان خواءها النفسى وتوترها وقلقها وهمومها الشخصية ولن تصل إلى بر أمان وإنما ستظل "محلك سر"

تنتقل من خيانة إلى خيانة.

ولا نجاة ولا عبور ولا خلاص إلا بالخروج من تكوينها النفسى إلى تكوين نفسى آخر.. من هموم شخصانية.. إلى نفس اجتماعية مشغولة بالمشاركة فى أهداف كبرى وحياة خصبة مثمرة مفيدة للناس تذوب فيها الهموم الصغيرة.

فإن كان زواجها الجديد سيخرج بها من شخصانيتها إلى حياة جديدة مثمرة التى كتب عليها صالح للاستهلاك.. فحظها من حياتها لن يزيد عن التقلب من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين فى حياة محصولها النهائى صفر.

إن مشكلتها الحقيقية ليست هى تغيير الرجل وإنما تغيير النفس.. وليس الحل هو خروجها من بيتها وإنما خروجها من نفسها من طبعها وسلوكياتها وعاداتها واهتماماتها واختياراتها فهل هذا ممكن.

***

الفهرس